

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

ورسلان في السلسلة الشرعية
" ٣ "

فتاوى الواقع

بين

النظر بين التطبيق

طبعة جديدة، منقحة ومزودة

كتبه

عالي بن محمد بن علي بن عبد الحميد

الحلبي اللاذقي

دراسات في السياسة الشرعية «٣»
رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أُسَلِّمُ إِلَيْهِمُ الْفُرُوسَ

فقه الواقع بين النظرية والتطبيق

طبعة جديدة، منقحة ومزودة

كتبه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلي الأثري

حقوق الطبع محفوظة



لشركة **النور**
للطباعة والنشر والتوزيع

فلسطين - رام الله - بير نبالا - دخلة عرابي - تلفاكس 02-2441207

E-mail : alnour-com@jrol.com

الطبعة الأولى : ١٤١٢هـ

الطبعة الثالثة : ١٤٢٠هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فقه الواقع
بين
النظرية والتطبيق

مقدمة الطبعة الثالثة

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
(سبحه الله وتعالى)

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة والسلام على نبيه
وعبيده، وعلى آله وصحبه ووفده؛ أما بعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة من رسالتي «فقه الواقع بين
النظرية والتطبيق»؛ وهي رسالة مؤصلة - إن شاء الله - على
نهج علماء السنة، وسبيل صفوة الأئمة^(١).

وها أنا ذا أراجعها، وأنظر فيها، وأتأملها بعد نحو
عشر سنواتٍ من تأليفها: فلم أرَ فيها إلا ما يزيدني ثباتاً
عليها - بحمد الله وتوفيقه -.

ولا بدّ - هنا - من تنبيهين:

الأول: أن بعض النقول العلمية التي نقلتها عن بعض
المنحرفين في المنهج، أو المغموز بهم في العقيدة: إنما
نقلتها لأحد سببين - أو لهما معاً -:

(١) كمثّل رسالة «سؤال وجواب حول فقه الواقع» لشيخنا الكبير أبي
عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله -، وقد قُمتُ عليها
- بفضل الله - تقديماً ونشراً.

أ- إقامة الحجّة على مُعْظَمِي هؤُلاءِ ؛ بما يكشف عن حقيقة مخالفتهم حتى لِمُعْظَمِيهِمْ !!

ب- كَشَفُ تناقضِ هؤُلاءِ^(١) - المنقول عنهم - حتّى مع أنفسهم ؛ بما خالفوا - فيه - كتاب رَبِّهِمْ ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِم ﷺ .

أما التنبيهُ الثاني : فهو أنّ بعضَ الغيُورين - من الحريصين على العقيدة والمنهج - قام بنشرِ هذا الكتابِ نشرَةً وقفيّةً - تصرّف فيها زيادةً واختصاراً - تحت عنوان «مَهْذَبُ فقه الواقع» ؛ لم أَطَّلِعْ عليه إلّا مطبوعاً !

(١) ومن أبرَزِ (هؤُلاءِ) (الكاتب الأديبُ) سيّد قطب - غفر الله له - ؛ فإنّه كان كثيرَ المخالفةِ للشرع - لعدم تخصُّصِهِ ، وقِلّةِ فقهه - ؛ وقد ردّ عليه فضيلةُ الأستاذ الشيخ ربيع من هادي - نفع الله به - في عدّة كتبٍ مُستقلّةٍ ؛ منها كتابُ «العواصم ممّا في كتب سيّد قطب من القواصم» ؛ أبان فيه - عليه - كثيراً من المآخذ العلمية - بعامة - ، والعقائدية - بخاصّة - .

ولقد نقلتُ من خطِّ أستاذنا الوالد الإمام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمه الله عليه - في آخر صفحةٍ من صفحات الكتاب المذكور - قوله : (كلّ ما ردّدته على سيّد قطب حقٌّ وصواب ؛ ومنه يتبيّن لكل قارئ مسلم على شيءٍ من الثقافة الإسلامية : أنّ سيّد قطب لم يكن على معرفة بالإسلام - بأصوله وفروعه - ؛ فجزاك الله خيراً أيها الأخ الربيع على قيامك بواجب البيان ، والكشف عن جهله ، وانحرافه عن الإسلام . ناصر).

وإبانةً وأمانةً أقولُ: معظمُ ما قام به الفاضلُ المذكور في
«مهذبهُ» -من تهذيبٍ- مقبولٌ لديّ، مرّضيٌّ عندي، سوى
ما أضافه - من عنده - تحت اسمي - على غلاف الرسالة -
من لَقَبٍ علميٍّ ^(١) لا أستحقُّ - والله - بعضَه!

فجزاه الله خيراً على حُسن ظنّه، وغفَرَ لهُ جزاءَ صنيعه!!
اللهمَّ اغفر لي ما لا يعلمون، واجعلني خيراً ممّا يظنّون،
ولا تُؤاخِذني بما يقولون .
وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين .

وكتب

علي بن حسن الحلبي الأثري
الزرقاء في السابع من شهر رمضان
سنة (١٤٢٠هـ)، يوم الأربعاء .

(١) وقد استغلّ ذلك - بغير حقٍّ - كعادتهم! بعضُ أهل الأهواء؛ فطَيروا به
ظنونهم، وسودوا - بمخالفتهم الشرع - بياضَ قراطيسهم!

رَفَعُ
عبد الرحمن (الفجرى)
أسكنه الفردوس
-مَدخل-

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعدُ:

فهذه هي الرسالة الثالثة من سلسلتي العلمية: «دراسات في السياسة الشرعية»، ولقد سبقَتْها رسالتان:

الأولى: «البيعة بين السنة والبدعة».

الثانية: «التصفية والتربية وأثرهما في استئناف الحياة الإسلامية».

وهذه هي الثالثة بين يديك -أخي طالب العلم-.

وسَيَلُوها قريباً - إن شاء الله- الرسالة الرابعة، وعنوانها: «الدعوة إلى الله بين التجمُّع الحزبي والتعاون الشرعي».

ثم طُبعت - ونفع الله بها - بحمده - سبحانه -.

سائلاً الله - سبحانه - النَّفْعَ لي ولإخواني، وأن يَهْدِيَنِي وإياهم سواء السَّبِيلِ.

مقدمة الطبعة الأولى

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا
مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله - وحده لا شريك له -.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ «فقهَ الواقع» - بثوبه الشرعي - أَصْلٌ أَصِيلٌ مِنْ قَوَاعِدِ
الفقه في دين الله - سُبْحَانَهُ - ، وَأَسَاسٌ مُهِمٌّ مِنْ أُسُسِ
الدعوة إلى الله - جَلَّ شَأْنُهُ - .

وهذا «الفقه» - على وجهه الصحيح - مِنْ لُبِّ الْإِسْلَامِ
وَلُبَابِهِ، يَعْرِفُ بِهِ الْمُسْلِمُ خَطَأَهُ مِنْ صَوَابِهِ، إِذَا فَهِمَ مِنْ
خِلَالِهِ الْأَحْكَامَ، وَاتَّقَنَ مَعْرِفَتَهُ بِأَحْكَامِ!

وَلَقَدْ تَنَازَعَ كَثِيرٌ مِنْ دُعَاةِ (العصر) هذا (الفقه)؛ كُلٌّ مِنْهُمْ
يَدَّعِيهِ لِنَفْسِهِ، مُتَّهِمًا (غيره) بأنه لا يفهم (الواقع) ولا يفقهه!

حَتَّى وَصَلَ (جُمُوحٌ) (وَاقِعُهُمْ) إِلَى الْعُلَمَاءِ وَالْأُمَّةِ، مِنْ
صَفْوَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ! فَقَذَفُوهُمْ بِنَزَاتِ هُزْئِهِمْ، وَرَمَوْهُمْ بِحُمَمِ
تَنْقِصِهِمْ؛ فَقَالُوا: «جَهْلَةٌ بِالْوَاقِعِ!» «أَغْيَاءُ سِيَاسَةٍ»!

قال الشيخ بكر أبو زيد في «حكم الأتماء»
(١٤٨-١٤٩)- مشيراً إلى (بعض) صنائع هؤلاء (!)-
قائلاً: «والعالم الذي لم يَتَمَّ إليهم يُلَقَّبُ بأنه (ليس واعياً)،
أو (غير واع بالواقع)، و(غير فاهم للواقع)، والصاق التُّهم
الكاذبة بالْعُلَمَاءِ، والتنفير منهم، والنظر إليهم بعين السُّخْطِ
والاستصغار... وهكذا: تشييد جسر ممتدٍّ من الغمز واللمز
لعلماء الأمة، والتنفُّص بهم».

وهم (يُناكدون) أنفسهم (ويُنَاقضون) (وَاقِعَهُمْ): «نحنُ
نَحْتَرِّمُ عُلَمَاءَنَا!» «نحنُ نُقَدِّرُ مشايخَنَا»!!

... ولقد جاءني عَدَدٌ من الشباب (الْمُتَحَمِّسِ) -مِرَاراً-
يقولون: (لماذا لا تتكلمون في فقه الواقع)؟!

وكنْتُ أعجَبُ لذلك أَشَدَّ الْعَجَبِ؛ فهؤلاء (!)
لا يُجَالِسُونَ أَهْلَ الْعِلْمِ، ولا يشهدُونَ الدُّرُوسَ، ولا
يَقْرَءُونَ الْكُتُبَ (!)، بل جُلُّ (ثَقَافَتِهِمْ) مقصورةٌ على قراءةِ
(مَجَلَّةٍ)، أو سماعِ (شَرِيطَةٍ)، أو تداولِ (نَشْرَةٍ)، أو حضورِ

(مُحَاضِرَة)!! وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُونَ : (فَقَهُ الْوَاقِع)!!

فَأَقُولُ لَهُؤُلَاءِ : أَهَذَا (فَقَهُ الْوَاقِع) الَّذِي تَدَّعُونَ ؟ أَمْ أَنَّهُ
(الْفَقَهُ الْوَاقِعُ) الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ سَاقِطُونَ ؟ !

فَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ !

وَلَقَدْ دَفَعْتَنِي تِلْكَمُ الْكَلِمَاتُ - وَغَيْرُهَا - إِلَى التَّفَكِيرِ مَلِيًّا
بِهَذَا (الْوَاقِع) الَّذِي نَعِيشُهُ وَنُطَبِّقُهُ ، مُقَارَنَةً بِأَحْوَالِ (أَوْلَئِكَ) ؛
مِنْ حَيْثُ التَّزَامُنَا بِدَعْوَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَهْجِ سَلَفِ
الْأُمَّةِ ؛ فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُحِيطَةُ الشَّامِلَةُ تَضَعُ جُلَّ اِهْتِمَامِهَا ،
وَعَظِيمَ جُهِدِهَا فِي تَثْبِيتِ الْعَقِيدَةِ فِي النُّفُوسِ ، وَفِي تَقْرِيرِ
التَّوْحِيدِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ ، وَفِي تَحْقِيقِ الْعِبَادَةِ بِأَصُولِهَا
وَأَرْكَانِهَا ، مُقِيمَةً سَاقَ أَمْرِهَا عَلَى مَا هُوَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ وَدَعْوَةُ
الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَكَرِّ الدُّهُورِ :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وَبَدَّهِيَ أَنْ يَتَّبَعَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ الْأَصْلِيَّةَ مُتَمَمَاتٌ
لَهَا، وَمُكَمَّلَاتٌ لِحَقِيقَتِهَا: مِنْ عِلْمٍ، وَتَعْلِيمٍ، وَدَعْوَةٍ،
وَتَصْفِيَةٍ لِمَا عُلِقَ بِالْإِسْلَامِ مِنْ شَوَائِبٍ، وَتَرْبِيَةٍ عَلَى هَذَا
الْإِسْلَامِ (الْمُصَفَّى)، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مُهِمَّاتٍ وَاضِحَاتٍ^(١)
هَذَا كُلُّهُ مِنْ جِهَةٍ.

وَمِنْ الْجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ: تِلْكَ الْأَفْكَارُ الْمُتَنَازِعَةُ، وَهَاتِيكَ
الْجَمَاعَاتُ الْمُتَغَايِرَةُ، الَّتِي تَدَّعِي (عِلَانِيَةً) أَنَّهَا صَاحِبَةُ (فِقْهِ
الْوَاقِعِ)، وَحَامِلَةُ رَأْيَتِهِ!!

فَمَا هِيَ ضَوَابِطُ هَذَا (الْفِقْهِ) الْمُدَّعَى عِنْدَ هَؤُلَاءِ؟!

أَهِيَ مَعْرِفَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟ أَمْ الْجَهْلُ بِهِمَا؟

ف(فِقْهُ الْوَاقِعِ) إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ صَمِيمِ دِينِ اللَّهِ
-عَزَّ شَأْنُهُ- أَوْ لَا يَكُونُ؟!

(١) فَلَيْسَ أَمْرُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ - إِذَا - كَمَا قَالَ (الْبَعْضُ) - مُوَهِّمًا أَوْ مُتَوَهِّمًا - فِي
رِسَالَتِهِ «مِنْ أَخْلَاقِ الدَّاعِيَةِ» (ص ٥٩-٦٠): «وَتَجِدُ فِتْنَةً ثَالِثَةً عُيِّنَتْ بِالْإِسْلَامِ
الْعِلْمِي، فَهِيَ تَتَعَلَّمُ السُّنَّةَ وَالْحَدِيثَ، وَتَشْتَغِلُ بِبَيَانِ صَحِيحِهَا مِنْ سَقِيمِهَا،
وَتُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ رَوَايَةِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالْمَوْضُوعَةِ، وَقَدْ يَصْحَبُ ذَلِكَ
شَيْءٌ مِنَ الْجَفَاءِ أَوْ ضَعْفِ التَّعَبُّدِ، أَوْ الْغَفْلَةِ عَنِ وَاقِعِ الْأُمَّةِ وَمَا يُدْبِرُ لَهَا!»
فَأَقُولُ: هَذَا كَلَامٌ يُخَالِفُ (الْوَاقِعَ)!!

فَإِذَا كَانَ: فالمعرفةُ بالكتابِ والسُّنَّةِ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَوْصِلَنَا
إِلَيْهِ، وَتَحْتُنَّا عَلَيْهِ! وَعُلَمَاؤُنَا وَأَثَمَتُنَا هُمْ أَهْلُهُ وَخَاصَّتُهُ.

وَأَنْ لَمْ يَكُنْ: فَتَحْنُ فِي غَنَاءٍ عَنْهُ بِكِتَابِ رَبَّنَا وَسُنَّةِ نَبِيِّنا ﷺ
-بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ-: اللَّذِينَ فِيهِمَا الشِّفَاءُ وَالْكَفَايَةُ!!

وَلَسْتُ أَتَصَوَّرُ أَحَدًا مِنَ الدُّعَاةِ الَّذِينَ (يَلْهَجُونَ) بِذِكْرِ
(فِقْهِ الْوَاقِعِ) - وَيَجْعَلُونَهُ دِيْدَنَهُمْ وَهَجِيرَاهُمْ - أَنْ يَقُولَ
بِخِلَافِ مَا هُوَ (وَاقِعٌ): مِنْ أَنَّ (فِقْهَ الْوَاقِعِ) -بِصُورَتِهِ
(الْشَّرْعِيَّةِ)- فِقْهٌ مُسْتَمَدٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ -،
وَسُنَّةِ النَّبِيِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ -، وَلَيْسَ لَهُ أَيُّ
أَصْلِ - سِوَى ذَلِكَ - مِنْ (أُطْرٍ) بَارِدَةٍ، أَوْ تَصَوِّرَاتٍ (وَافِدَةٍ)!!

وَإِنَّمَا قُلْتُ: (بِصُورَتِهِ الشَّرْعِيَّةِ) لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الشَّبَابِ،
-بِلِ (الدُّعَاةِ)- اخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمْ مَفَاهِيمُ هَذَا (الْفِقْهِ)،
وَانْقَلَبَتْ عَلَيْهِمْ (حَقَائِقُهُ):

فَحَسِبُوا أَنَّ (تَنْظِيرَ) الْأَفْكَارِ بِاصْطِلَاحَاتٍ عَصْرِيَّةٍ،
وَإِخْرَاجَهَا بِأَثْوَابٍ (حِمَاسِيَّةٍ)، وَإِشْهَارَهَا بِطَرَائِقَ عَاطْفِيَّةٍ،
وَصِيَاغَتَهَا بِقَوَالِبٍ (حَزْبِيَّةٍ)، وَسِيَاقَتَهَا بِأَسَالِيْبٍ (سَرِيَّةٍ): هُوَ
(فِقْهُ الْوَاقِعِ) الْمَرْجُوُّ، وَهُوَ الْأَمَلُ الْمُنْشُودُ الَّذِي يَجِبُ
الِالْتِقَاءُ عَلَيْهِ وَالِدَّعْوَةُ إِلَيْهِ!!

ولقد غَفَلَ هؤلاء - وغيرهم - عن فِطْرِيَّةِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ - تعالى - ، وَأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى أُسَاسِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ، ودلائل اليقين ، دون الزخارفِ أو التزيين .

«وعلى هذا النَّحْوِ مَرَّ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي بَثِّ الشَّرِيعَةِ لِلْمُؤَالِفِ وَالْمُخَالَفِ ؛ وَمَنْ نَظَرَ فِي اسْتِدْلَالِهِمْ عَلَى إِثْبَاتِ الْأَحْكَامِ التَّكْلِفِيَّةِ : عَلِمَ أَنََّّهُمْ قَصَدُوا أَيْسَرَ الطَّرِيقِ وَأَقْرَبَهَا إِلَى عَقُولِ الطَّالِبِينَ ، لَكِنْ : مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ مُتَكَلِّفٍ ، وَلَا نَظْمٍ مُؤَلَّفٍ ، بَلْ كَانُوا يَرْمُونَ بِالْكَلَامِ عَلَى عَوَاهِنِهِ ، وَلَا يُيَالُونَ كَيْفَ وَقَعَ فِي تَرْتِيبِهِ ؛ إِذَا كَانَ قَرِيبَ الْمَأْخَذِ ، سَهْلَ الْمُتَمَسِّ»^(١) .

وطريقة (فقه الواقع) الْقُرْآنِيَّةُ - بِسُهُولَةٍ وَدُونَ تَعْقِيدٍ - هِيَ عَلَى نَحْوِ مَا بَيَّنَّهُ الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِي - رحمه الله تعالى - فِي كِتَابِهِ «الْقَوَاعِدُ الْحَسَنَاتُ لِتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» (ص : ٥) ، حَيْثُ قَالَ :

«كُلُّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا ، وَعَمِلَ عَمَلًا ، وَأَتَاهُ مِنْ أَبْوَابِهِ وَطَرِيقِهِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُفْلِحَ وَيَنْجَحَ ، وَيَصِلَ بِهِ إِلَى غَايَتِهِ ؛ كَمَا قَالَ - تعالى - : ﴿وَأَنْتُمْ أَلْبُيُوتَ مِنْ

(١) «الموافقات» (٥٩/١) للشاطبي .

أَبْوَيْهَا ﴿١﴾، وَكُلَّمَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ تَأَكَّدَ هَذَا الْأَمْرُ، وَتَعَيَّنَ
الْبَحْثُ التَّامُّ عَنْ أَمْثَلِ وَأَقْوَمِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَا نَحْنُ فِيهِ ^(١) هُوَ أَهَمُّ الْأُمُورِ وَأَجَلُّهَا، بَلْ
هُوَ أَسَاسُهَا وَأَصْلُهَا.

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ لِهَدَايَةِ الْخَلْقِ
وإِرشَادِهِمْ، وَأَنَّهُ - فِي كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَانٍ وَمَكَانٍ - يُرْشِدُ إِلَى
أَهْدَى الْأُمُورِ وَأَقْوَمِهَا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ
أَقْوَمُ﴾.

فَعَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَلَقَّوْا مَعْنَى كَلَامِ اللَّهِ كَمَا تَلَقَّاهُ الصَّحَابَةُ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قَرَأُوا عَشْرَ آيَاتٍ - أَوْ
أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ - لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حَتَّى يَعْرِفُوا وَيُحَقِّقُوا مَا دَلَّتْ
عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَيَنْزِلُونَهَا عَلَى الْأَحْوَالِ
الْوَاقِعَةِ؛ يُؤْمِنُونَ بِمَا اخْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْبَارِ،
وَيَنْقَادُونَ لِأَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا، وَيُطَبِّقُونَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا
يَشْهَدُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الْمَوْجُودَةِ بِهِمْ وَبِغَيْرِهِمْ،
وَيُحَاسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ:

(١) أي: (الواقع) الذي نحياه، وانظر ما سيأتي (ص ٨٠) مِنْ كَلَامِهِ
- رَحِمَهُ اللَّهُ -.

هل هم قائمون بها؟ أو مُخلون بحقوقها ومطلوبها؟
وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وتدارك ما
نقص منها؟

وكيف التخلص من الأمور الضارة؟

فيهتدون بعلمهم، ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه
خطاب من عالم الغيب والشهادة، مُوجه إليهم، مُطابئون
بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيلاً
بجميع المصالح؛ مبين لها، حاث عليها، زاجر عن
المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نُصب عينيه، ونزلها على
كل واقع وحادث، سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها،
وكثرة فوائدها، وثمرتها.

قلت:

فالواجب المُحتم -إذا-: إخضاع واقعنا المعاصر الذي
نعيشه؛ بما فيه من علم، ومشكلات وأحداث، وفتن:
لقواعد الدين وأصوله.

أما «الأمانى والمحاولات العاطفية، والجهود التي تعتمدُ

المناسبات والمصالح الموسميّة، فهي أوهى من أن تُقيم
القاعدة الإسلامية الجادّة، أو تحفظ وحدتها.

فما لم نحتكم إلى القرآن - حقيقة لا مظهرًا -، بعد
إسقاط كلّ القناعات الشخصيّة والموروثة من عُصور الصّراع
الإسلامي - الإسلامي - وما لم تكن كلّ قناعاتنا مُستنبطة
من الوحي، محكومةً به: فلا أمل لنا بوحدة، أو عمَلٍ،
أو خلاص^(١).

فَفَقَهُ الْوَاقِعَ :

.. كِتَابٌ وَسُنَّةٌ ... عِلْمٌ وَعَمَلٌ ...

.. سَدَادٌ وَهِدَايَةٌ ... فَهْمٌ وَدِرَايَةٌ ...

.. بَصِيرَةٌ وَنَبَاهَةٌ ... تَيْقُظٌ وَحُضُورٌ ...

و ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ .

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْغَفُورِ^(٢) .

(١) «في منهجية الدعوة الإسلامية المُعاصرة» (ص٦) للأخ أحمد سلام
-سَدَدَ الله- .

(٢) كتبه: أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ .

غروب شمس يوم الخميس لعشرة أيام بقيت من شهر الله المحرم سنة
(١٤١٢هـ) .

هَذِي مِنَ التَّنْزِيلِ

قال الله -جلَّ اسْمُهُ- :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وقال رسولُ الله ﷺ :

«قد كان من قبلكم يؤخذ الرجلُ فيُخَفَرُ له في الأرض،
فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشار، فيُوضعُ على رأسِهِ، فيُجْعَلُ
نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بَأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مِنْ دُونِ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ،
فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَمُنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى
يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ،
وَالذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» .

رواهُ البخاريُّ (٦٩٤٣) .

ما هو (فقه الواقع)؟

لَمَّا عَلِمَ «أَنَّ حَيَاةَ الْأُمَّةِ مُرْتَبِطَةٌ-ثَبَاتًا وَنُمُوًّا وَارْتِقَاءً- بِقَدْرِ مَا تُحْيِيهِ مِنَ الْعَمَلِ بِالْوَحْيَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَيَكُونُ نَقْصُهَا وَاخْتِلَالُ مَوَازِينِ الْحَيَاةِ فِيهَا بِقَدْرِ الْفَوْتِ مِنْ ذَلِكَ»^(١) : كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا وَجِيهًا نَعْرِفُ مِنْ خِلَالِهِ الصُّورَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِفَقْهِ الْوَاقِعِ حَسَبَمَا أَصَلَّهُ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ، وَيَتَّبِعُوا قَوَاعِدَهُ :

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ^(٢) :

«وَلَا يَتِمَكَّنُ الْمُفْتِي وَلَا الْحَاكِمُ مِنَ الْفَتَوَى وَالْحُكْمِ بِالْحَقِّ إِلَّا بِنَوْعَيْنِ مِنَ الْفَهْمِ :

أَحَدُهُمَا : فَهْمُ الْوَاقِعِ ، وَالْفَقْهُ فِيهِ ، وَاسْتِنْبَاطُ عِلْمِ حَقِيقَةِ مَا وَقَعَ بِالْقَرَائِنِ وَالْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ ؛ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ عِلْمًا .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : فَهْمُ الْوَاجِبِ فِي الْوَاقِعِ : وَهُوَ فَهْمُ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ ، أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فِي هَذَا الْوَاقِعِ .

(١) «فقه التَّوَازُلِ» (٧/١) للشيخ بكر أبو زيد .

(٢) فِي «إِعْلَامِ الْمَوْقِعِينَ» (١/٨٧) .

ثم يُطَبَّقُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ .

فَمَنْ بَذَلَ جُهِدَهُ وَاسْتَقْرَعَ وَسْعَهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يَعْدَمْ أَجْرَيْنِ
أَوْ أَجْرًا وَاحِدًا .

فَالْعَالَمُ مَنْ يَتَوَصَّلُ بِمَعْرِفَةِ الْوَاقِعِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ إِلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

قُلْتُ :

فهذا هو خلاصة القول في «فقه الواقع» - دون تَمْطِيطٍ أَوْ
تَفْرِيطٍ - : مَعْرِفَةُ حُكْمِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ
ﷺ ، وَتَطْيِيقُ ذَلِكَ عَلَى الْوَقَائِعِ الْحَاضِرَةِ وَالْمَسَائِلِ
الْمُعَاصِرَةِ .

قال ابنُ سُرَيْجٍ ^(١) :

«ليس شيءٌ إلا والله - عَزَّ وَجَلَّ - فيه حُكْمٌ؛ لَأَنَّهُ
- تَعَالَى - يَقُولُ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ ، ﴿وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا﴾ ، وليس في الدُّنْيَا شيءٌ يَخْلُو مِنْ
إِطْلَاقٍ أَوْ حَظَرٍ أَوْ إِجَابٍ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ
مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ أَوْ مَلْبَسٍ أَوْ مَنْكَحٍ ، أَوْ حُكْمٍ بَيْنَ

(١) كما في «البحر المحيط» (١/١٦٥) للزركشي .

مُتَشَاوِرَيْنِ - أو غيره - لا يَخْلُو من حُكْمٍ، ويستحيلُ في
العُقُولِ غيرُ ذلك».

لِذَا؛ كَانَ مِنْ شُرُوطِ الْمُفْتِي: «مَعْرِفَةُ النَّاسِ، وَإِلَّا رَاجَ
عَلَيْهِ الْمَكْرُ وَالْخِدَاعُ وَالْإِحْتِيَالُ»^(١).

وهذا هو معنى ما ورد عن إياس بن معاوية^(٢) - رحمه
الله - مِنْ قَوْلِهِ: «لَسْتُ بِالْحَبِّ، وَلَا الْحَبُّ يَخْدَعُنِي».

ف «فقه الواقع» هو إعمالُ قولِ الله - تعالى - : ﴿ إِنَّا
أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ ﴾ .
وقوله - عزَّ شأنه - : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

مِنْ غَيْرِ تَحْوِيرٍ وَلَا تَغْرِيرٍ، مِنْ غَيْرِ بَهْرَجَةٍ وَلَا تَزْيِيفٍ،
مِنْ غَيْرِ تَزْيِينٍ وَلَا تَخْرِيفٍ!!

وعليه؛ فَإِنَّ مِنْ أَوَّلِ مُقَوِّمَاتِ (فقه الواقع) معرفة الكتاب
وَالسُّنَّةِ عَلَى نَهْجِ سَلَفِ الْأُمَّةِ: تَطْبِيقاً وَعَمَلاً، لَا ادِّعَاءً وَأَمَانِي!

(١) «الفكر السامي» (٤٢٨/١) لِلْحَجَوِيِّ .

(٢) «تهذيب الكمال» (٤١٨/٣) - لِلْمِزِّي - .

وقد اشتهر عن عمر - رضي الله عنه -، ولم أقف عليه مُسْتَدًّا!

فَلَا يَفْقَهُ «الواقع» مَنْ لَمْ يَعْرِفْ كِتَابَ رَبِّهِ - سُبْحَانَهُ - ،
وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ ؛ عَامِلًا بِمَقَاصِدِهِمَا ، مُلتَزِمًا بِأَحْكَامِهِمَا .

أَمَّا مَا يُذَكِّرُ مِنْ أَنَّهُ «صَعَدَ خُطِيبٌ مِنَ الْخُطَبَاءِ فِي إِحْدَى
الْقُرَى فِي يَدِهِ كِتَابٌ يَقْرَأُ مِنْهُ ، فَكَانَ مِمَّا قَالَهُ فِي آخِرِ خُطْبَتِهِ
أَنْ دَعَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السُّلْطَانَ الْعُثْمَانِي فَلَان ، أَنْ يُخَلِّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ ، وَيُؤَبِّدَ سُلْطَانَهُ»^(١) : فَهَذَا - إِنْ صَحَّ - صَنِيعُ الْخُطِيبِ
الْجَاهِلِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، لَا صَنِيعُ الْعَالِمِ الْوَاعِي ، وَالْفَقِيهِ
الْبَصِيرِ !!

وَمَا أَكْثَرَ خُطَبَاءَ الْمُنَاسَبَاتِ وَالْحَمَاسَاتِ ، وَالْقَصَصِ
وَالْإِشَاعَاتِ فِي هَذَا الْعَصْرِ !!

وَلَا بُدَّ - هُنَا - مِنَ الْقَوْلِ بِوُضُوحٍ تَامٍّ : إِنَّ إِرْجَاعَ مَجْدِ
الْإِسْلَامِ التَّلِيدِ ، وَإِعَادَةَ سُودْدِهِ الْغَائِبِ ، وَرَفْعَةَ مَنَارِهِ السَّاطِعِ ،
لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْمَنْهَجِ الرَّبَّانِيِّ ، وَالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ ، حَيْثُ لَا
سَبِيلَ سِوَاهُ ، وَلَا طَرِيقَ عَدَاهُ :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
وَسَبِّحْنَا اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(١) «مِنْ أَخْلَاقِ الدَّاعِيَةِ» (ص ٦٤) !

ولا قِيَامَ لِسَاقِ هذه الدَّعْوَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ؛ الَّذِي هُوَ ضِيَاءُ
البَصِيرَةِ ونورُهَا، وأُسْهُهَا وأَسَاسُهَا.

ولا عِلْمٌ حَقِيقِيًّا (وَأَقْعِيًّا) إِلَّا عِلْمُ كِتَابِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ -،
وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ؛ فَهُمَا الْمَحَجَّةُ الْيُضَاءُ، وَالذَّرَّةُ الْعَصْمَاءُ.

ولا فَهْمٌ يُوصِلُنَا إِلَى هَذَا الْعِلْمِ - نَنْجُو بِهِ مِنْ دَخَائِلِ
النُّفُوسِ، وَظُلُمَاتِ الْهَوَى - إِلَّا (فَهْمٌ سَلَفِ الْأُمَّةِ)، وَصِفْوَةُ
الْأُمَّةِ... فَهُوَ سَبِيلُ الْإِيمَانِ... وَصِمَامُ الْأَمَانِ.

وَأَمَّا مَا يُوصَفُ - الْيَوْمَ - بِ (الفكر الإسلامي) (!)
فَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ هَذَا الْحَقِّ بَعْدَ الْغَرْبِ عَنِ الشَّرْقِ!!
وَاللَّهُ الْهَادِي....

ثَوَابُ (فقه الواقع)

وَتَوَابُ «فقه الواقع» منشورةٌ عَبْرَ آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ-، وَفِي سُنَّةِ وَسِيْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَمَنْ أَحَاطَ بِقَوَاعِدِهَا، وَتُهْمَاتِهَا: أَحَاطَ بِأَصُولِ «فقه الواقع» وَفُرُوعِهِ، وَدَلَالَتِهِ وَتَطْبِيقَاتِهِ، بَلْ إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ كُلَّهُ؛ بِسُورِهِ وَآيَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ، بِقَصَصِهِ وَأَحْكَامِهِ، بِزَجَرِهِ وَأَمْرِهِ: إِنَّمَا نَزَلَ دَوَاءً لِلْوَقْعِ، وَبَيَانًا لِلْأَحْكَامِ الطَّارِئَةِ حَسَبَ الْحَوَادِثِ، وَعِلَاجًا لِلْأَدْوَاءِ، وَحَلًّا لِمَشَاكِلِ الْأُمَّةِ وَمُعْضَلَاتِهَا.

فَأَجْتَزَى شَيْئًا مِنْ تِلْكَمُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الَّتِي هِيَ عُمْدُ (ثواب) هَذَا الْفَقْهِ السَّدِيدِ، ذِي النِّهَجِ الرَّشِيدِ:

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

وقال - سبحانه - : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ
الْمُجْرِمِينَ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيعُ
أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

يقول - سبحانه - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَكْسِبُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَكْسِبُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ
الْقُبُورِ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي
وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ
الْحَقِّ ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُم لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .

قلتُ :

فهذه الآيات قُلٌّ مِنْ جُلٍّ^(١) - وأمثالها في القرآن كثيرٌ - ،
ولكنّها كافيةٌ لمن فهمها وتدبرها أن يعرف (واقعهُ) الَّذي
يعيشهُ؛ مهما تعدّدت أشكاله، ومُجتمعه الذي يحياه؛ مهما
تنوّعت صورهُ؛ ليطبّق من خلال ذلك كُلّه «فقه الواقع»
المنشود، في ظلّ ذلك (الأمل) المفقود!

ولو نَظَرَ كُلُّ واحدٍ مِنّا (الآن) في العالم المُتصارِع الَّذي
نعيشهُ: هل تَخْرُجُ شاذّةٌ مِنْهُ أو فاذّةٌ عن هذه الآيات العظيمة؟!
لو نَظَرْتَ إلى «البيت الأبيض» ومُخطّطاتِهِ، وأنظمتِهِ،
وأجهزَتِهِ!

ولو نَظَرْتَ إلى «الكرملين»، وتهاويه، وتداعيه، وتفشّيه!
ولو رَجَعْتُ بِنَظَرِكَ إلى سَنَةِ (١٩٢٤هـ)، وهي سَنَةُ
سقوط دولة الخلافة العُثمانية، وما أعقبَ ذلك من
تقسيمات (تركة) (الرجل المريض)!

ولو نظرتَ إلى (أحجار) (رُقعة الشُّطرنج) المتحرّكة يميناً
وشمالاً! المُتقاذفة هُنا وهُناك!

(١) وانظر ما سيأتي (ص ٨٣) و (٩٣).

ولو نَظَرْتَ إِلَى (الصَّلَاتِ) التي يَجِبُ أَنْ تكونَ بين
المُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا!

ولو نَظَرْتَ إِلَى (العَلَاَقَاتِ) الواجِبِ وجودُها بين
المُسلمِينَ ومُناوئِهِم ولاءٌ وبراءٌ!

لو أَجَلْتَ نَظْرَكَ فِي هَذَا كُلِّهِ -فضلاً عن غيرِهِ مِمَّا قَبْلَهُ أو
بعده- فهل تَعْزُبُ عن تِلْكَ المُآيَاتِ حَادِثَةٌ أو قَضِيَّةٌ؟!

أَمْ أَنَّ الصَّرَاعَ بين الكُفْرِ والإِيمَانِ يُعِيدُ نَفْسَهُ عِبرَ البُلْدَانِ
على مَرٍّ الأزْمَانِ! لَكِنْ بِاخْتِلَافِ الأَسْمَاءِ والأَشْخَاصِ!
وبتَغَايُرِ الوَسَائِلِ والطَّرَاقِ!

فَتَأَمَّلُوا -رِعاكُم اللهُ- صِرَاعَنَا المَعَاصِرَ مع أعداءِ اللهِ،
مُقَارَنَةً بِصِرَاعِ اليَهُودِ الأوَّلِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي فَجْرِ
دَعْوَتِهِ... فماذا تَرَوْنَ؟!

إِنَّهَا «المَعْرَكَةُ التي شَنَّها اليَهُودُ على الإسلامِ والمُسلمِينَ
مِنذُ ذَلِكَ التَّارِيخِ البَعِيدِ، ثُمَّ لَمْ يَخْبُ أَوَارُهَا حَتَّى اللَّحْظَةِ
الحَاضِرَةِ، بِنَفْسِ الوَسَائِلِ، وَنَفْسِ الأَسَالِيبِ، لَا يَتَغَيَّرُ إِلَّا
شَكْلُهَا... أَمَّا حَقِيقَتُهَا فَباقِيَةٌ... وَأَمَّا طَبِيعَتُهَا فَواحِدَةٌ»^(١).

(١) «الظلال» (١/٦٣-٦٤)!!

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ .

قلتُ: هذه سُنَّةُ الله ترجعُ وتكرَّر، فلن تتغيَّر أو تتحوَّر:
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ .

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ .

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ .

فتوابتُ «فقه الواقع» واحدةً، وقواعدهُ راسخةٌ، مهما
تغيَّرت (الصُّور) ومهما تعدَّدت (الأشكال)! فالحالُ هو
الحال!

ولا قوَّةَ إلا بالله العظيم المُتَعَال .

لذا؛ فإنَّ هناك أصلاً عظيماً يجبُ تصوُّرُهُ وتطبيقُهُ،
تحقيقاً لهذه (الثوابتِ)، وهو التَّركِيزُ على تلك الأصولِ
الكلِّية المنبثقة من القرآن والسُّنة في كلِّ حينٍ وأن، حتى
تكونَ كالأسس التي يُبنى عليها هذا البُنيان، لِيَمَّ -في-

ضَوْنُهَا - فَهْمٌ - وَمَعَامَلَةٌ - كُلُّ طَارِئٍ أَوْ حَادِثٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ
وَمَكَانٍ!

أَمَّا أَنْ (نَنْتَظِرَ) وَقَوَعَ الْأَحْدَاثِ، أَوْ حَدُوثَ الْوَقَائِعِ (!)
ثُمَّ نَتَسَابَقَ إِلَى تَنْزِيلِ النُّصُوصِ عَلَيْهَا - بِعَجَلَةٍ وَمَسَارَعَةٍ - :
فَهَذَا بَعِيدٌ عَنِ «فَقْهِ الْوَاقِعِ» بِمَقْوَمَاتِهِ وَأَثَارِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ انْجِرَارٌ
وَرَاءَ عَوَاصِفِ الْأَحْدَاثِ وَمُدْلَهَمَاتِ الْفِتَنِ!
وَعَلَيْهِ :

فَإِنَّ «الْإِهْتِمَامَ بِفَقْهِ الْوَاقِعِ اِهْتِمَامًا زَائِدًا - بَحِثٌ يَكُونُ مِنْهَجًا
لِلدَّعَاةِ وَالشَّبَابِ، يُرَبُّونَ - وَيَتَرَبَّوْنَ - عَلَيْهِ؛ ظَانِّينَ أَنَّهُ سَبِيلُ
النَّجَاةِ: خَطَأً ظَاهِرًا، وَغَلَطًا وَاضِحًا»^(١)!

وَبَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَقُولُ :

إِنَّ الدَّعْوَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الْيَوْمَ «تُوجَّهُ حَالَةً شَبِيهَةً بِالحَالَةِ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا الْمَجْتَمَعَاتُ الْبَشَرِيَّةُ يَوْمَ جَاءَ الْإِسْلَامُ - أَوَّلَ
مَرَّةٍ - مِنْ نَاحِيَةِ الْجَهْلِ بِحَقِيقَةِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْبُعْدِ عَنِ
الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ - وَلَيْسَ فَقَطِ الْبُعْدُ عَنِ النِّظَامِ
الْإِسْلَامِيِّ وَالشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ - .

(١) «سؤال وجواب حول فقه الواقع» (ص ٤٨) لشيخنا الألباني - رحمه الله - .

وفي الوقتِ نفسه تُوجَدُ معسكراتُ صهيونيةٌ وصليبيّةٌ
استعماريّةٌ قويّةٌ، تحاربُ كُلَّ محاولةٍ للدعوةِ الإسلاميّةِ،
وتعملُ على تدميرها عن طريقِ الأنظمةِ والأجهزةِ المحليّةِ؛
بتدبيرِ الدّسائسِ والتوجيهاتِ المؤدّيّةِ لهذا الغرضِ، ذلكَ
بينما الحركاتُ الإسلاميّةُ تشغلُ نفسها في أحيانٍ كثيرةٍ
بالاستغراقِ في الحركاتِ السياسيّةِ المحدودةِ المحليّةِ،
كمُحاربةِ مُعاهدةٍ، أو اتّفاقيّةٍ، وكمُحاربةِ حزبٍ، أو تآلِبٍ
خَصَمٍ في الانتخاباتِ عليه!

كما أنّها تشغلُ نفسها بمُطالبةِ الحكوماتِ بتطبيقِ النظامِ
الإسلاميِّ والشرعيّةِ الإسلاميّةِ، بينما المجتمعاتُ ذاتُها
-بجُمليتها- قد بعُدَت عن فهمِ مدلولِ العقيدةِ الإسلاميّةِ
والغيرَةِ عليها، وعن الأخلاقِ الإسلاميّةِ...

ولا بُدَّ - إذن - أن تبدأ الحركاتُ الإسلاميّةُ من القاعدةِ:
وهي إحياءُ مدلولِ العقيدةِ الإسلاميّةِ في القلوبِ والعقولِ،
وتربيةُ مَنْ يَقْبَلُ هذه الدعوةَ وهذه المفهوماتِ الصحيحةَ،
تربيةً إسلاميّةً صحيحةً، وعدمُ إضاعةِ الوقتِ في الأحداثِ
السياسيّةِ الجاريةِ، وعدمُ مُحاولاتِ فرضِ النّظامِ الإسلاميِّ
عن طريقِ الاستيلاءِ على الحُكْمِ قبل أن تكون القاعدةُ

المسلمة في المجتمعات هي التي تَطْلُبُ النظامَ الإسلامي؛ لأنها عَرَفَتْهُ على حقيقته، وتريدُ أن تُحَكِّمَ به»^(١).

«إذ إنَّ الوصولَ إلى تطبيق النظام الإسلامي والحُكْمَ بشريعة الله ليس هدفاً عاجلاً؛ لأنَّه لا يُمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها- أو جُمْلَةً صالحة منها ذاتِ وزنٍ وثقلٍ في مجرى الحياة العامة- إلى فهمٍ صحيحٍ للعقيدة الإسلامية، ثم للنظام الإسلامي، وإلى تربيةٍ إسلاميةٍ صحيحةٍ على الخُلُقِ الإسلاميِّ مهما اقتضى ذلك من الزَّمن الطويل والمراحل البطيئة»^(٢).

فهذا هو النَّهْجُ الحقيقيُّ الأساسيُّ لتطبيق (ثوابتِ فقه الواقع)، دونَ عَوَاطِفَ تَجَرِّفُ .. ولا حَمَاساتٍ تَحْرِفُ .. ولا (حَرَكيَّة) عن الحقِّ تصرفُ
فكن -أخي الداعية- منه على ذِكْرٍ ... تُفْلِحْ وتَنْجَحْ.



(١) «لماذا أعدموني» (٢٧-٢٨)!!

(٢) المرجع السابق!!

(٣)

سياسة (فقه الواقع)!

بعد وعي ما سبق من (ثوابت) وفهمه: وَجَبَ معرفةُ (السِّيَاسة) الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الدُّعَاةِ أَنْ يَسْلُكُوهَا وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى أَنْ يَنْتَهَجُوهَا:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ، وَيَكْثُرُونَ». قالوا: فما تأمرنا؟

قال: «أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فالأَوَّلِ، ثُمَّ أَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ»^(١).

فالسِّيَاسةُ - بتعريفها العلمي الشرعي - هي «رعايةُ شُؤُونِ الْأُمَّةِ»^(٢)، وهذا ما جاء الإسلامُ لتحقيقه؛ بآياته وأحاديثه، بأوامره وأحكامه، بقواعده وتأصيلاته.

(١) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢).

(٢) قارن بـ«خطط المقرئ» (٣/٣٥٧).

فالسِّيَاسَةُ فِي «فقه الواقع» هي تطبيقُ ثوابتِ الكتاب
والسُّنَّةِ على مستجدَّاتِ العَصْرِ، دونَ مُؤارَبَةٍ باطلةٍ، ولا
مُماحَكَةٍ خادعةٍ، ولا (استغلال) لكلِّ حادثة!

وليست هذه «السياسة الشرعية» كتلك السياسة الفاسدة
التي أَصَلَ أصولُها أولئك الكُفَرَةُ المُخادعون، والمُشركون
المُفسدون!!

إنَّها ليست سياسة «ميكافيلي» صاحب الكذب والخداع،
والمكر والتمويه!

إنَّها ليست سياسة «الأمير»^(١) المبنية على «دبلوماسية»
الدَّجَلِ والتزوير، و «بروتوكولات» النِّفاقِ والتغريب!
إنَّها «السِّيَاسَةُ الإلهيَّةُ، والإِبَانَةُ النبوية [التي] لا يَسْتَعْنِي
عنها الراعي والرعيَّة»^(٢).

وتطَبِّق هذه «السياسة» على «الواقع» لاستخلاص «فقه»
التعامل معه يكونُ على حالَيْنِ:

(١) هو اسمُ كتاب ميكافيلي - ذاك -!

(٢) مِنْ كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «السياسة
الشرعية» (ص ١١)، وفيه: «والإبانة»! ولعلَّ الصواب ما أثبتُّ.

أولاً: وقائعُ حادثةٍ ظاهرةٍ، يَبْنِي فيها حُكْمُ اللَّهِ -سبحانه-، بأدلتِهِ الواضحةِ، وبراهينه الثابتةِ، فَيُطَبَّقُ عليها ما (يُسْتَطَاع) تطبيقُهُ من أحكامٍ؛ وذلك بالرجوع إلى العلماء والأئمة، وفقهاء الأمة... ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً: أحداثٌ ظَنِّيَّةٌ مُتَوَقَّعةٌ، قائمةٌ على (الاحتمالات) و(التَّحْلِيلَات) و(الظُّنُون)؛ وأحياناً: (التَّخْيُّلات)!!

فهذه (الأحداث) يُتَعَامَلُ معها على تخوُّفٍ؛ لأنها لم تَقُمْ على ساقٍ، ولا ثَبَّتَ لها أساس.

وَجُلٌّ (مسائل) السياسة المعاصرة (وَصُورُهَا) تابعةٌ لهذه الأحداث (الظَنِّيَّة)، مبنيةٌ عليها.

ولكنَّ هذا كُلُّهُ لا يمنع من الحيطة، والحذر، والتَّيقُّظ.

وليس من شَكٍّ بعد كُلِّ ما سَبَقَ أَنَّ «رعايةَ شُؤُونِ الأُمَّةِ تحتاجُ إلى منهجٍ؛ [فَهَلْ] يُوجَدُ منهجٌ يصلحُ لهذه المهمَّةِ غيرُ الإسلام؟

إذن: فالإسلامُ سياسةٌ بمفهوم الإسلام»^(١)، لا بمفهوم

(١) «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة» (ص ١٦٦).

وسائل و (أدوات) الإعلام! ولا بطرائق أهل (الفكر) الغرباء
عن العلم وهُدَاتِهِ الأعلام!!

والسَّلام!

وَيَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ حَقِيقَةَ شَرْعِيَّةٍ ثَابِتَةٍ - علماً يقينياً تَتَفَتَّحُ بِهِ
عُقُولُنَا، وَنَسْتَقِظُ بِهِ عَلَى حَقِيقَةِ (وَاقِعِنَا) - وَهِيَ «أَنَّ مَا
أَصَابَنَا وَمَا يُصِيبُنَا، وَمَا سَيُصِيبُنَا، إِنَّمَا هُوَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا،
وَمِنْ تَقْصِيرِنَا فِي حَقِّ دِينِنَا، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ
فِي مَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِكُمْ﴾.

وَلَقَدْ اعْتَادَ بَعْضُ الدُّعَاةِ أَنْ يُلقُوا تَبَعَةً مَا يُصِيبُ
المُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ!! وَفَضْلاً عَنْ أَنْ هَذَا مُخَالَفٌ
لِلْمَنْهَجِ الرِّبَانِيِّ، وَالْهَدْيِ النَّبَوِيِّ فَإِنَّ فِيهِ مَفَاسِدَ عَظِيمَةً،
وَسَلَبِيَّاتٍ كَثِيرَةً:

١- مُخَالَفَتُهُ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي تَحْلِيلِ الْوَقَائِعِ، فَاللهُ
-سُبْحَانَهُ- أَلْقَى تَبَعَةً هَزِيمَةً أَحَدٍ وَحُنَيْنٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
أَنْفُسِهِمْ، رَغْمَ أَنَّ الْكُفَّارَ هُمُ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ .

٢- فيه تعظيم للكُفَّارِ في نُفوسِ المسلمين - بادِّعاءِ أَنَّهُم أصحابُ الأمرِ والتدبيرِ، والنجاحِ في كُلِّ صغيرٍ وكبيرٍ! - ممَّا يزيدُ الأُمَّةَ وهناً على وهنِها الكثير!! .

٣- فيه تزكيةٌ للنفسِ، بمعنى أَنَّا استَكْمَلْنَا شروطَ النَّصرِ، واستَحَقَّقْنَا التَّمَكُّينَ، ولكنَّ الكُفَّارَ غَلَبُونَا على هذا، ويترتبُ على ذلك إهمالُنا لتربيةِ أَنْفُسِنَا، ومراجعةِ حسابِنا، كما يترتبُ على ذلك أمرٌ عظيمٌ وخطيرٌ؛ وهو [ظَنُّ]:

٤- أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُؤْفِ بِوَعْدِهِ فِي نَصْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّ الكُفَّارَ غَلَبُوا أَمْرَ اللَّهِ، قال - تعالى - : ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ .

وذلك :

٥- يُثْبِتُ عَنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ، وَضَعْفِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وليس معنى تَحْمِيلِ تَبَعَةٍ مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، تبرئةُ الكُفَّارِ وأعداءِ الإسلامِ ممَّا يَفْعَلُونَهُ بِالْمُسْلِمِينَ، فهذا أمرٌ وذلك أمرٌ آخَرُ... .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

فعندما أَخْبَرَ الله - سبحانه وتعالى - بأسباب هزيمة أحد، لم يُفْهِم من هذا أَنَّ الله بَرَأَهُمْ مِمَّا فَعَلُوا بالمُسْلِمِينَ^(١).

ف «السياسة» الحَقَّةُ: أَنْ تعرفَ موقعَكَ، وترعى أَمَّتَكَ، وتفهم - بحقٍّ - واقعَكَ، وتدعُو قَبيلَكَ ..

وسوى ذاك: فكذبٌ وهراء! وجريٌّ وراءَ الأهواء!!
وركوبٌ للفتن الهَوْجاء!!!

لأنَّه مُخَالَفَةٌ لِهَدْيِ رَبِّ السَّمَاءِ، وتَنَكُّبٌ لِنَهْجِ الرُّسُلِ
الأنبياء، وَبُعْدٌ عن طريقِ الدُّعَاةِ الْأَسْوَياءِ.

أَمَّا اللُّهَاتُ وَرَاءَ (السِّيَاسَاتِ) الْفَارِغَةِ، وَالسَّعْيُ خَلْفَ
(الوقائع) (!) الْخَيَالِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ... فَهُوَ مَا يُخَطِّطُ لَهُ أَعْدَاءُ
الْأُمَّةِ - وَيَتَمَنَّوْنَ وَقُوعَهُ -؛ لِيُحْرِفُوا الشَّبَابَ الْمُسْلِمَ عَنْ
مَوْقِعِهِ الْحَقِيقِيِّ، وَيُضْرِفُوهُمْ عَنْ وَاجِبِهِمِ الْأَسَاسِيِّ،
وَيُبْعِدُوهُمْ عَنْ هَدَفِهِمِ الْأَوَّلِيِّ...

(١) «السييل...» (٣٨-٣٩).

حُكْمُ النَّظَرِ فِي (فقه الواقع)

مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْعُلَمَاءِ، وَكَانَ بَيِّنًا جَلِيًّا عِنْدَ الطُّلَّابِ
التُّبَلَاءِ: أَنَّ الْمَعَارِفَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَالْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةَ تُقَسَّمُ
إِلَى قَسْمَيْنِ: فُرُوضُ أَعْيَانٍ، وَفُرُوضُ كِفَايَةٍ:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(١):

«لَا رَيْبَ أَنَّهَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ
الرَّسُولُ ﷺ إِيْمَانًا عَامًّا مُجْمَلًا، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ
بِهِ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى التَّفْصِيلِ فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
دَاخِلٌ فِي تَبْلِيغِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وَدَاخِلٌ فِي تَدَبُّرِ
الْقُرْآنِ وَعَقْلِهِ وَفَهْمِهِ، وَعِلْمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَحِفْظِ
الذِّكْرِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ، وَالْمُجَادَلَةِ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا
أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ مِنْهُمْ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/٣١٢).

وأما ما يجبُ على أعيانهم: فهذا يتنوع بتنوع قُدرِهِم،
ومعرفتِهِم، وحاجتِهِم، وما أُمِرَ به أعيانُهُم، فلا يجبُ على
العاجزِ عن سماعِ بعضِ العلمِ ما يجبُ على القادرِ على
ذلك، ويجبُ على مَنْ سَمِعَ التُّصَوِّصَ وفَهَمَهَا مِنْ عِلْمِ
التفصيلِ ما لا يجبُ على مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، ويجبُ على الْمُفْتِي
والمُحَدِّثِ والمُجَادِلِ ما لا يجبُ على مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

قلتُ: فأنتَ ترى -أخي المسلم- هذا التقسيمَ العلميَّ
الشرعيَّ؛ ففي أيِّ القسمين يكونُ «فقهُ الواقع» بصورتهِ
(الشرعية) لا (الخيالية) (التصورية)؟

ليس مِنْ شَكٍّ عند كُلِّ ذي نَظَرٍ أَنَّ هذا «الفقه» إنما
يجبُ - بصورتهِ الشرعية - على بعضِ (عُلماءِ) الأُمَّة - لا
كُلِّهِم - يُبَيِّنُونَ بينَ الحينِ والآخرِ (الحقائق) الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُم
نتيجةُ (التَّبَع) و (اليَقَظَة) لِمَا يُحِيكُهُ أَعْدَاءُ الإسلامِ ضِدَّ
الإسلامِ، لِيَأْخُذُوا (حِذْرَهُم)، لَا لِتَعْبِئَةِ العَوَاطِفِ، و(تَفْرِغِ)
الحماسات... حَسْبُ!!

والنَّاطِرُ في هذا «الفقه» يجبُ أَنْ يَكُونَ على دَرَجَةٍ عاليةٍ
مِنَ العلمِ، وَمِنَ الوَعْيِ، وَمِنَ الفَهْمِ؛ حَتَّى لَا تَنْطَلِي عليه
أَرَاخِيفُ (السَّاسَةِ)، وَخَبَائِثُ (الإِعلام)!

لا أَنْ يَكُونَ (طِفْلاً) يُرَدِّدُ مَا يَسْمَعُ دُونَ وَعْيِي، وَمِنْ غَيْرِ
فَهْمٍ؛ كَمَا هُوَ الْحَالُ -الآنَ- فِي كَثِيرٍ مِنَ (الْخَائِضِينَ) «فَقَهُ
الْوَاقِعِ» دُونَ أَهْلِيَّةٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ!!

وَلَقَدْ (قَرَأْتُ) فِي رِسَالَةٍ كَتَبَهَا -قَرِيباً- (كَبِيرٌ) مِنْ كُبَرَاءِ
(الْمَاسُونِيَّةِ) -لأَعْوَانِهِ- (يُوجِّهُهُمْ)، وَيُرْشِدُهُمْ، وَ(يُنْظَرُ)
لَهُمْ -وَأَصْفَاءُ حَالٍ غَيْرِ الْمَاسُونِيِّينَ-: (... لَأَتَهُمْ تَخْلَوْا لَنَا
عَنْ حَقِّهِمْ فِي التَّفْكِيرِ، وَالتَّوْجِيهِ؛ وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ أَنْ سَيَّطَرْنَا
عَلَى كُلِّ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ وَالصَّحَافَةِ، وَلِهَذَا فَهْمٌ دَائِماً بِانْتِظَارِ
مَا نَقُولُهُ، وَمَا نُوَجِّهُهُ إِلَيْهِمْ، فَيَتَّخِذُونَ أَقْوَالَنَا لِيَرُدُّدَوْهَا-
دُونَ وَعْيٍ مِنْهُمْ، وَإِدْرَاكِ-، وَيَتَقَبَّلُونَ تَوْجِيهَاتِنَا دُونَ
تَحْقِيقٍ أَوْ نِقَاشٍ...»^(١).

أَقُولُ: فَالتَّهْوِيلُ الْكَبِيرُ الَّذِي أُحِيطَ بِهِ «فَقَهُ الْوَاقِعِ»
بِأَخْرَةٍ، لَيْسَ مِنْ شَكٍّ أَنَّهُ أَثَرٌ مِنْ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ، وَلَا حَظٌّ لَهُ
فِي الْمُنْهَجِيَّةِ!

وَالْإِنْكَارُ الشَّدِيدُ الَّذِي يُدْنِدُنُ بِهِ (دُعَاتُهُ) عَلَى (غَيْرِهِمْ)
مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَطُلَّابِهِ لَيْسَ لَهُ فِي الْحَقِّ مَكَانٌ!

(١) صحيفة «العرب اليوم» (٩٩/١٢/١٤)، وانظر ما سيأتي (ص ٦٥).

إِذْ إِنَّ هَؤُلَاءِ (الدُّعَاة) يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ بـ «فقه الواقع»
عَالِمُونَ، وبأحوالِ الشَّرِيقِ والغرب عارفون، وَمِنْ أَلَا عِيبِ
السِّيَاسَةِ مُحَذِّرُونَ... فهم -إِذَا- بِفَرَضِ الكِفَايَةِ
قَائِمُونَ...

فلماذا على غيرهم يُتَكْرَرُ؟!

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

فالواجبُ الشرعيُّ -إِذَا- يَطْلُبُ أَنْ يَتَخَصَّصَ (بعضُ)
(النَّابِهين) لدراسة هذه (الوقائع) وتتبعها، بعد معرفة
تفصيلية دقيقة بحقائق البيانات الشرعية -بتوجيهات خاصة
أهل العلم-، وبصنوف التحذيرات الإلهية، حتَّى تَتَمَيَّرَ
الأولوياتُ، ولا تختلط الأوراقُ!

ثم نقولُ:

إِنَّ نَعْيَ (البعضِ) على (بعضِ) آخَرَ؛ بجهلِ «فقهِ
الواقع»، أو «الغفلةِ عن واقع الأمة وما يُدَبِّرُ لها» (!) كثيراً
ما يَكُونُ فيه ظُلْمٌ، وبُعْدٌ عن الصوابِ...

إِذَا ما هو المِقياس الذي به تُعْلَمُ هذه (الغفلة) أو ذلك
(الفقه)؟

هل هو مجردُ كتابةِ المقالات! وإلقاء المحاضرات!
وتجميع الصحف والمجلات!

هَيْهَات... هَيْهَات...

إنَّ الجُهدَ الدَّؤوبَ الصَّامِتَ الهادىءَ المُرافِقَ في جُزئِيَّاتِهِ
(كُلِّهَا) لِلوَحِيَّينِ الشَّرِيفِيْنَ... خَيْرٌ بِأَلْفِ مَرَّةٍ مِنْ صَخَبِ
(الإعلام)، وضجيج (المُحاضرات) (الفِكْرِيَّة) الَّتِي غَالِباً مَا
تُبْنَى عَلَى الْخَرْصِ وَالظَّنِّ!!

ضِعَافُ الْأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَيْراً وَأَصْرُمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ



(٥)

(فقه الواقع)

بين الوهم والحقيقة

بدأتِ المعالمُ بالظهور، وبرزتِ أماراتُ المنهجيةِ
بوضوح، وخفتِ صوتُ العواطفِ، وبهرَ ضوءُ الكتابِ
والسُّنة، وعلا منارُ التعقلِ والأناة.

فحقيقةُ «فقه الواقع» من غيرِ زُيوفٍ ولا رُتوشٍ: تطيُّقُ
أحكامِ الإسلامِ على النفسِ والمجتمعِ، بعلمٍ ودرايةٍ
وبصيرةٍ.

حقيقةُ «فقه الواقع»: إنفاذُ الأحكامِ: ولاءٌ وبراءٌ، أخذٌ
وعطاءٌ!

حقيقةُ «فقه الواقع»: العملُ بالعلمِ، والسَّيرُ على طريقِ
الهدايةِ بحِلْمٍ، دونَ حماساتٍ تجرِفُ، ومن غيرِ عواطفٍ
تحرفُ!

حقيقةُ «فقه الواقع»: معرفةُ أقدارِ النفوسِ، والوقوفُ عند
حدودِ الشرعِ، دونَ تعدٍّ أو تحدٍّ!

حقيقة «فقه الواقع»: إعمال الحب في الله والبُغض في الله؛ دون مُواربة أو مُداراة، وَبِتَأْسِي نهج السَّلف في ذلك؛ اتِّباعاً وتطبيقاً، تنفيذاً وتحقيقاً!

حقيقة «فقه الواقع»: الدعوة إلى الله بعلمٍ وعلى بصيرة؛ بأخوة الإسلام، وفطرية الدعوة، ونقاء السرائر، وإخلاص القلوب، دُونَ (شُرْذِمَةٍ) أو تجرُّب، من غير (تمحورٍ) أو تعصُّب!

وعُلماءُ الإسلام هم القائمون بذلك، الْمُؤْتَمَنُونَ عليه.

أَمَّا (الوَهْمُ) الذي يعيشُهُ (البعضُ) - ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ فُهِمَاءُ «فقه الواقع»! وَهُمْ - في (الحقيقة) - دُعَاةُ «الفقه الواقع» (!) - فهوُ ظَنُّهُمْ أَنَّ مَقَوِّمَاتِ «فقه الواقع» هي تَبَعٌ وَكَالَاتُ الأَنْبَاءِ الْعَالَمِيَّةِ! وقراءةُ الصُّحُفِ الْغَرْبِيَّةِ!

هل هذا هو «فقه الواقع» الذي يجبُ أَنْ يعيشَهُ المُسْلِمُونَ واقعاً فقهياً؟

هل إقامةُ المحاضرات «الفكرية» و «المهرجانات الخطابية»، وإصدارُ النُّشُرَاتِ «العصرية» هو أَمَارَاتُ (فقه الواقع)؟

هل سماعُ «مونت كارلو» و «صوت أمريكا» و «إذاعة لندن» هو قاعدةُ فقه الواقع؟

هل أخبار «سقوط الشيوعية» و «الهَيْمَنَة الأمريكية» و «النفوذ اليهودي» من أصولِ فقه الواقع؟

هل إصدارُ (صكوك) التكفير، وَوَصْم (جميع) حُكَّام المسلمين (بالرَّدَّة)^(١) من (حقائق) فقه الواقع؟!

هل استكناه خبايا «النَّظام العالمي الجديد» وأسرار «حَرْب النُّجوم» وتفاعلات «البروسترويكا» من لُبَاب فقه الواقع؟

هل قراءة مقالٍ عن دراسة أسباب «الوحدة الأوروبية» وخفايا حقيقة «القومية العربية» والأهداف «العِلْمَانِيَّة» من أُسُس فقه الواقع؟!

هل القيامُ بـ «مُظَاهَرَة» أو «مَسِيرَة» أو «إِضرَاب» يُعَدُّ رمزاً من رموز فقه الواقع؟!

هل اللُّهَاتُ وراءَ مُجريات «قَضِيَّة فلسطين» (!) وأزمة «الشرق الأوسط» (!) و «مُؤتمرات المائدةِ المُسْتَدِيرَة»

(١) انظر كتابي «التحذير من فتنة التكفير»، و«صيحة نذير بخطر التكفير».

مِنْ عُمْدِ فَقِهِ الْوَاقِعِ؟!

هل المشاركة بـ (برلمان) أو رئاسة (بلدية) مِنْ (مظاهر)
فقه الواقع؟!

هل تكهُّنُ الوقوفِ على تخطيطات «البنتاغون» وقرارات
«مجلس الأمن» وطرائق تفكير «خُبَّاءِ صُهيون» مِنْ مُهِمَّاتِ
فقه الواقع؟!

هل قراءة «النُيُوزِيك» والاطِّلاعُ على «التَّايْم» وتصفُّح
«دير شبيغل» هي «قوائمُ» فقه الواقع؟!

هل الانشغالُ بتقليب الشبكات الفضائية مِنْ (أركان) فقه
الواقع؟!

هل المطالبة بوجود «الديمقراطية» وتطبيق «الحقوق
الإنسانية» (!) مِنْ (متمِّمات) فقه الواقع؟!

سُبْحَانَ اللَّهِ!

أَسْمَاءٌ... صُورَةٌ... أَفْكَارٌ... اصطِلَاحَاتٌ...
خُطَطٌ... وَقَائِعٌ... أَحْدَاثٌ... تَطَوُّرَاتٌ...
تَصَوُّرَاتٌ...

ثم ماذا؟!

هل إذا (غَرِقْنَا) في بحار التَّيِّه (اللامتھية) -هذه- نكون
مِنْ بُنَاة «فقه الواقع»؟

هل إذا خُضْنَا (غِمَار) (لعبة الأمم) -هذه- نكون قد
وَقَفْنَا على أعتاب «فقه الواقع»؟!

هل إذا (حَشَرْنَا) أَلَسْتَنَا في (أَبْوَابِ) السَّاسَةِ الْعَالَمِيَّين
نكون قد فَقَّهْنَا «الواقع» الذي يُرَاد لَنَا، وَيُكَادُ فيه بنا؟!

هذه (الصُّور) كُلُّهَا (ظِلَالُ) شخصٍ واحدٍ!

وهذه (الْأَسْمَاءُ) جَمِيعُهَا (مَظَاهِرُ) لِمُسَمًّى واحدٍ!

وهذه (الْأَصْوَاتُ) كُلُّهَا (أَصْدَاءُ) لـ (نَاعِقٍ) واحدٍ!

وهذه (الْمُخَطَّطَاتُ) جَمِيعُهَا (عُكُوسُ) رَأْيٍ واحدٍ!

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ
وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا
قَالَ يَبْلَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ
يَنْفَعَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتَ كُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ
تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ فَإِنَّمَا
نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ . أَوْ نُزَيِّنُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا

عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١﴾

هذا هو التَّهْجُ... وهذا هو الصُّرَاطُ... وهذه هي علامات الرُّشْد والسَّدَاد.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

وعليه؛ فَإِنَّ النِّصِيحَةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي تُوجَّهُ لِكُلِّ الدُّعَاةِ الْإِسْلَامِيِّينَ عَلَى اخْتِلَافِ طَرَائِقِهِمْ وَتَوَجُّهَاتِهِمْ، هِيَ «أَلَّا تَسْتَغْرِقَهُمُ الْأَحْدَاثُ الْجَارِيَةُ، وَأَلَّا يَنْغَمِسُوا فِيهَا، وَفِي الْمَنَاوِرَاتِ الْحِزْبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، فَإِنَّ لَهُمْ حَقْلًا آخَرَ أَوْسَعَ، وَأَبْعَدَ مَدًى، وَإِنْ كَانَ بَطِيئًا طَوِيلَ الْأَمَدِ، وَهُوَ حَقْلُ الْبَعْثِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْعَقِيدَةِ، وَلِلْقِيَمِ، وَلِلْأَخْلَاقِ، وَلِلتَّقَالِيدِ الْإِسْلَامِيَّةِ [الشَّرْعِيَّةِ] فِي صُلْبِ الْمَجْتَمَعَاتِ، حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ - بِالْجُهْدِ الطَوِيلِ وَالصَّبْرِ - بِقِيَامِ النِّظَامِ الْإِسْلَامِيِّ»^(١).

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

(١) نمد آدموني " (ص ٧٠) !!

مَحَازِيرُ غَلَطِ فَهْمِ

(فقه الواقع)

إِنَّ الْغَلَطَ فِي فَهْمِ «فقه الواقع» ومعرفة حقيقته ومقوماته يُؤَلِّدُ أخطاراً شنيعة، وَيُنْشِئُ أخطاءً فظيعة، أَذْكَرُ مِنْهَا - لَا عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ - أَلْوَانًا:

أَوَّلًا: التَّصَوُّفُ الْعَصْرِيُّ:

وذلك بتقسيم (الدِّينِ) وعُلَمَائِهِ، وَالشَّرْعِ وفُقَهَائِهِ إِلَى: «فُقَهَاءِ وَاقِعٍ» (!) و «فُقَهَاءِ شَرْعٍ» !!

وهذا (التقسيم) «مِنْ أخطرِ الأمورِ الَّتِي أفرَزَتْهَا (الحِزْبِيَّةُ) ودُعَاؤها، حَتَّى يَعْصِفُوا بِالْأُمَّةِ ويعزلوها عَنْ عُلَمَائِهَا الحَقِيقِيِّينَ: عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ.

وهذا الاصطلاحُ قَرِيبُ الشَّبهِ -جَدًّا- مِنْ اصطلاحِ الصُوفِيَّةِ: عَالَمٍ بِالْحَقِيقَةِ! وَعَالَمٍ بِالشَّرِيعَةِ! مِنْ وُجُوهِ: مِنْهَا الحِيلُولَةُ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ عُلَمَاءِ الشَّرِيعَةِ، وَادِّعَاءُ عِلْمٍ لَمْ يَبْلُغْهُ عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ، وَلَمْ يَقِفُوا عَلَيْهِ!

وما هي إلا إلهاماتُ (الحَرَكَين) واستشعاراتُهم! وما
تفتقُ به أذهانُهم من تَنظيراتٍ، وتَصَوُّراتٍ، ونَظراتٍ
(مُسْتَقْبَلِيَّة) تَحَارُّ عقولُ الأتباعِ دونَ الوصولِ إليها، فلا يبقى
إلا التسليمُ!!

لم يجدِ الْمُتَصَوِّفَةُ بُدًّا من اتِّباعِ هذا الطريقِ؛ لِفَضْلِ
الناسِ عن الكتابِ والسُّنَّةِ، وعَقْدِ الوثاقِ على عقولِهِم،
والتمتُّعِ بِمُلْكِيَّيْهَا وتَوَجُّيْهَا! ^(١)

عُلَمَاءُ حَقِيقَةٍ . . . عُلَمَاءُ شَرِيعَةٍ!

عُلَمَاءُ (وَأَقَع) . . . عُلَمَاءُ شَرْعٍ!!

فَقَهٌ بَدَوِيٌّ . . . وَفَقَهُ عَصْرِيٌّ!!!

وهذا هو- في حَقِيقَتِهِ- الاصطلاحُ «العصرانيُّ» الغَرْبِيُّ
الجَدِيدُ نَفْسُهُ، لَكِنْ بِلَبُوسٍ آخَرَ: تَقْدِمِيُّونَ . . . رَجَعِيُّونَ!!

ثم ماذا؟!

سَلَخُ النَّاسِ عَنْ أَصَالَتِهِمْ، وَاجْتِنَاثُ لَهُمْ مِنْ جُذُورِهِمْ!
هَذَا مَحْذُورٌ ذُو شُرُورٍ، (نَخْشَى) أَنْ يُصْبَحَ (وَأَقَعِيًّا)
يُفَرِّزُهُ الْفَقَهُ الْأَعْوَجُ لِلوَأَقَعِ!

(١) «الطليعة في براءة أهل السُّنَّة» (ص ٣٢) للعتبي -بتصرف-.

وهذا أمرٌ - لا شك - باقع!

ثانياً: التقليد بثوبه الجديد:

كَتَبَ إِلَيَّ أَحَدُ الإِخْوَةِ الْجَزَائِرِيِّينَ السَّلَفِيِّينَ خِطَاباً يَذْكُرُ
فِيهِ بَعْضَ صُورِ الْخِلَافِ بَيْنَ الدُّعَاةِ هُنَاكَ، وَمَا نَتَجَّ عَنْ
(افْتِرَاقِهِمْ) مِنْ (سَوَالِب) وَ (مَحَازِير)!

قال:

«وتعلمون ما نَتَجَّ عَنْ التَّحَرُّبِ مِنَ الْفُرْقَةِ، وَتَنَكُّبِ طَرِيقِ
الْعُلَمَاءِ، وَسَبِّهِمْ، وَالرَّدِّ عَلَى دُعَاةِ السُّنَّةِ الَّذِينَ لَمْ يَتَحَرَّبُوا!

والمساكينُ (!) لا دَلِيلَ مَعَهُمْ سِوَى مَقُولَةٍ أَصْبَحَتْ
صَنْمًا عِنْدَنَا، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: «أَنْتَ أَعْلَمُ مِنْ (فُلَان)؟»! وَإِذَا
نَاقَشْتَ أَحَدَهُمْ، وَعَرَفْتَهُ بِالْمَنْهَجِ النَّبَوِيِّ يَصِيحُ فِي وَجْهِكَ
قَائِلاً: «هَلْ هَذَا أَمْرٌ لَا يَعْرِفُهُ (فُلَان) وَعَلِمْتَهُ أَنْتَ؟»!

فَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ حَالَتُنَا أَمَعْنُ النَّظَرَ فِي أَسْبَابِهَا، فَوَجَدْنَاهَا
الْجَهْلَ بِأَحْكَامِ اللَّهِ - تَعَالَى -».

هَذَا أَهَمُّ مَا جَاءَ فِي خِطَابِ الْإِخِ الْجَزَائِرِيِّ
- وَفَّقَهُ الْمَوْلَى - .

وأنت ترى من خلال كلماته الأسف الظاهر على حال هؤلاء المُقلِّدين العَصريِّين (!) الذين يزعمون بالسِّتْهم نَبَذَ التقليد، لكنَّ أحوالهم (تنطقُ) بأنَّهم غارقون فيه!!

وهُم - في هذا وذاك - يُطَبِّقُونَ بِفِعَالِهِمْ طَرِيقَةَ (الشيخ والمُريد)، ولكنَّ فِيمَنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ - غَالِباً - بِمَشِخَةِ (المُريدين) - على فَرَضِ قَبُولِهَا أَوْ الرِّضَى بِهَا! - .

وهذه (الصُّورة) تَتَكَرَّرُ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ، وَلَكِنْ بِطَرَائِقَ مُتَفَاوِتَةٍ، وَبشخصيات متباينة!

وَيَجْمَعُهَا - جَمِيعاً - التَّربِيَةُ (الْعَمِيَاءُ) عَلَى قَبُولِ قَوْلِ «فَقِيهِ الْوَاقِعِ»! وَرَدَّ قَوْلِ «فَقِيهِ الشَّرْعِ»!

.. هَكَذَا .. مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ وَلَا شَرْطٍ!!

وَقَدْ (غُرِسَتْ) أَفْكَارٌ فِي رُؤُوسِ (هَؤُلَاءِ) مَفَادُهَا أَنَّ «فُقَهَاءَ الشَّرْعِ» جَمِيعاً، هُمْ عَلَى طَرِيقَةِ (أَسْطُورَةِ) ذَاكَ الْخَطِيبِ الدَّاعِي لِلْعُثْمَانِيِّينَ عَلَى مَشَارِفِ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ!!

فَهَؤُلَاءِ (الْمَشَايِخُ) غَارِقُونَ بَيْنَ (الْكِتَبِ)، مُنْغَلِقُونَ عَلَى (أَنْفُسِهِمْ)، تَحْبِسُهُمْ عَنِ (الْوَاقِعِ) جُدْرَانُ (مَكْتَبَاتِهِمْ)، وَ(أَوْرَاقِ) مُؤَلَّفَاتِهِمْ!!

فلا يفقهون (سياسةً) ولا يعلمون (واقعاً)!!

أما أولئك (الواقعيون)^(١): فهم يتَّبَعُونَ الـ (سِّي . إِنْ . إِنْ)!
ويقرؤون الـ (غارديان)! ويحرصون على جَمْعِ (القُصَاصات)
واقتناء (المقالات) وقراءة (المُذَكِّرات) وتتَّبَعِ (التَّحْلِيلات)!

فأين أولئك مِنْ هؤلاء!

وهذا - تالله - عينُ البلاء!!

إنَّه الغِرَّةُ المُوَدِّيَّةُ بالعقولِ إلى الهاويةِ بعيداً عن الشرعِ
بِضَوَابِطِهِ وقَوَاعِدِهِ!

وعُلَمَاؤُنَا... وفُقَهَاؤُنَا... هم في الحقيقةِ (صُنَاعُ)
مَجْدِ الأُمَّةِ، و(بُناة) عِزِّ الأجيالِ.

ثالثاً: الخلطُ بين الخطباءِ والعُلَماءِ:

وهو خلطٌ قبيحٌ يُوصِلُ إلى قبولِ الأحكامِ الشرعيَّةِ ممَّن
هو دونَ أهليةِ ذلكِ.

إذ يصعدُ الخطيبُ (الواقعي) - بعد سماعِ (نشرةِ أخبار)
أو قراءةِ (مجلة) أو التَّنَظَرِ في (صحيفة) أو (تِلْفَاز) - إلى

(١) انظر في مصطلح (الواقعية) عند الغربيين كتاب «منهج التربية الإسلامية»

الْمَنْبَرِ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، وَيُرْغِي وَيُزِيدُ، (مُلَحَّصًا) قراءاته
وسماعاته بـ (مُوجِزٍ) لأهمّ (الأنباء)!

وهذا ما يُوافقُ (حماسة) الشباب، وهو ما (يُداعِبُ)
عواطفَ المُتوقِّدين نشاطاً وحميةً وغيرةً!

ولكن: ما هكذا (تُفرِّغُ) العواطف! وما هكذا (تُعَبِّأُ)
الحماسة! وما هكذا تكونُ (الغيرة)!

فَيَنْتُجُ عن هذا (الخلط) أن يصيرَ هذا (الخطيبُ) في
أذهان أولئك الشباب (العالمُ) الذي لا يُبارى؛ (لِطَلَّاقِهِ)
لسانه، و(حَلَاوَةِ) بَيَانِهِ، و(حُسْنِ) تحليلاتِهِ، و(صَوَابِ)
(توقُّعاتِهِ)!!!

وهو في الحقيقة (خطيبٌ) ليس إلّا! أو قاصٌّ يوارى
بشيءٍ من التَّقِيهُقِ نقصَ علمه وفقهه!!

وأما ذلك (العالمُ) وريثُ الأنبياءِ -الَّذِي سَلَخَ مِنْ عُمُرِهِ
سَنَوَاتٍ طَوَالاً درسَ فيها الكتابَ والسنةَ، ووعى أحكامَهُما،
وعَرَفَ مدلولاتِهِما- فَإِنَّهُ يُضْبِحُ (معزولاً) عن الشبابِ،
(بِثُّمَةٍ) البُعْدِ عن (الواقع)!!

وهذا باطلٌ ما له من دافع!

رابعاً: رَبَطَ النَّاسَ بِغَيْرِ الْأَكْفِيَاءِ:

وهذه نتيجةٌ حَتْمِيَّةٌ لذلك الخلط القبيح الذي قدّمنا ذكره والإشارة إليه.

ومؤدّى ذلك شرٌّ عظيمٌ، وخطرٌ جسيمٌ يجعلُ (الأتباع) «يهابون التعاملَ معَ ظاهر الكتاب والسُّنة - كما كان السُّلف - ويُعوّلونَ على (الفيض الإلهاميّ) لعالم (الحركة) و(فقيه الواقع)، كما يهابُ الصوفيُّ الطُّرُقِيّ ظاهرَ الكتاب والسُّنة، مُعوّلاً على عُلماء (الحقيقة) في فهم دينه، مخافة الانحراف، زَعَمُوا!!

فِيُحَال - حينئذٍ - بين الناس والاتّصال بعُلماء الكتاب والسُّنة، والتعامل مع ظاهر الشريعة، بطُرُق ووسائل مُحدثة، تتلوّن معَ تغيُّر الزمان»^(١)...

وهذا عَيْنُ تَلْبِيسِ الشَّيْطَانِ.

خامساً: غَلَبَةُ الْجَانِبِ السِّيَاسِيِّ (العصري)

على الشَّرْع:

وهذا - أيضاً - نتيجةٌ (طبيعية) لحالٍ مَن (ضَخَم) أمرَ «فقه الواقع» بصورة (التوهّم) التي شرَحناها من قبلُ.

(١) «الطليعة...» (ص ٣٣) - بتصرُّف -.

فترى أَنَّ الجَانِبَ السِّيَاسِيَّ (العَصْرَانِيَّ) يَأْخُذُ مِنْ (الدَّعْوَةِ) مَسَاحَةً كَبِيرَةً، وَحَجْمًا (ضَخْمًا)، أَوْسَعَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْحَجْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ الْإِسْلَامُ لِهَذَا الْجَانِبِ^(١)، فَيَطْغَى هَذَا الْجَانِبُ - (الْمَجْبُولُ) بِمَكْرِ السَّاسَةِ وَخِدَاعِ النِّفَاقِ الْعَصْرِيِّ - عَلَى جَانِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - بِصِدْقِهَا، وَفِطْرِيَّتِهَا، وَصَفَائِهَا، وَنَقَائِهَا.

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

سادساً: استلزامُ التَّقْلِيلِ مِنْ أَهْمِيَّةِ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ:

فإنَّه يُخْشَى عَلَى مَنْ (غَلَبَ) عَلَى عَقْلِهِ بُحُوثُ السِّيَاسَةِ، وَنَظَرِيَّاتُ (الْحَرَكَةِ)، فَفَقَّهَ (الْوَاقِعَ) عَلَى غَيْرِ (حَقِيقَتِهِ): يُخْشَى عَلَى مِثْلِ هَذَا أَنْ (يَجْرِيَ) عَلَى لِسَانِهِ قَوْلُ الْجَاهِلِينَ الْمُتَجَاهِلِينَ (!) الَّذِينَ يُوَاجِهُونَ دُعَاةَ التَّوْحِيدِ وَأَهْلَ السُّنَّةِ بِقَوْلِهِمْ: «هَذِهِ قُشُورٌ»! «اهْتَمُّوا بِاللِّبَابِ»!!

و(الْبَعْضُ) مِنْهُمْ (!) يَقُولُ: «لَقَدْ تَجَاوَزْنَا الْعَصْرَ الْمَكِّيَّ، (وَتَوَقَّفْتُ) عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ؛ فَكُفَّاكُمْ كَلَامًا عَنْ

(١) قرن - بمنهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل» (ص ١٠٣-١٠٤) تفضيلة الأستاذ الشيخ ربيع بن هادي - حفظه الله تعالى - .

الحيض والنفاس ، وما تُصَحِّحُ به عقائدُ الناس !!

سُبْحانَ الله! الدعوةُ إلى السُّنَّةِ: قشور! إقامةُ التوحيد:
قشور!

وهل توقفت الدعوة إلى التوحيد، والأحكام الشرعية في
أيِّ وقتٍ من حياةِ رسولِ الله ﷺ بدءاً وانتهاءً؟
فَلُبَابُ دعوةٍ (هؤلاء) - أجمعين - : (تمويهاتُ) الغربيين،
و(تمحلات) السياسيين، و(نظريات) المُفكرين، وأقلامُ
(الأرأيتيين)!

وهذه قِسْمَةٌ ضيزى بكلِّ يقين!!

سابعاً: الثقة بوسائل الإعلام الفاسدة^(١)

سواءٌ منها ما كان في الغربِ أو الشرقِ، وهذا يُنشِئُ
(تَضخيمَ) حالِهِم، و(تصديقَ) مقالِهِم!

وعُلماؤُنا - رحمهم الله - لم يَقْبَلُوا خبرَ المسلم الصادق
إذا لم يَكُنْ عدلاً وضابطاً، فكيف إذا كان كافراً مُعادياً!!

وينعكسُ هذا - سلباً - على العلم الشرعيّ بتقليلِ الثقة به!!

(١) انظر ما تقدّم (ص ٤٧).

وله (انعكاسٌ) آخَرُ أَذْهَى وَأَظْلَمُ؛ وَذَلِكَ بِيَعْتِ (الرُّعْبِ) فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، وَ(الرَّهْبَةِ) فِي قُلُوبِهِمْ تَجَاهَ أَعْدَائِهِمْ.

فَوَسَائِلُهُمْ وَ(أَدْوَاتُهُمْ) تُضَحِّمُ أَمْرَ (العَقْلِيَّةِ) الْغَرِيبَةِ، وَتُفَحِّمُ شَأْنَ (عِتَادِهَا) وَأَسْلِحَتِهَا، وَتُعَظِّمُ حَالَ (بِرَامِجِهَا) وَ(تَخْطِيطَاتِهَا)! وَهِيَ -بِالتَّالِي- تَجْعَلُ كُلَّ حَدَثٍ -أَوْ حَادِثٍ- صَغُرَ أَمْ كَبُرَ- مِنْ صُنْعِهَا أَوْ تَدْبِيرِهَا!!

فَهَذَا كُلُّهُ يُؤَلِّدُ -بَلْ يَزِيدُ- الْوَهْنَ . . وَالضَّعْفَ . .
وَالْخُضُوعَ لِهَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتِي (لَا تُقْهَرُ)!!

وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ (الدَّعَايَةِ) وَ (الإِعلامِ) إِرْهَابًا لِلْأَعْدَاءِ (!)، وَكِبْتًا لـ (الْخُلَطَاءِ)!!

وَهَذَا -كُلُّهُ- قَلْبٌ لِحَقِيقَةِ تِلْكَ الْمُعْجَزَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي آتَاهَا اللَّهُ -سُبْحَانَهُ- نَبِيِّهِ ﷺ بِشَارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَذَارَةً لِلْكَافِرِينَ:
«نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ»^(١).

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨) ومسلم (٥٢٣) عن أبي هريرة.

ثامناً: عَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنِ الْأَوَلَوِيَّاتِ، وَالتَّسَاهُلُ فِي الْشَّرْعِيَّاتِ:

إِذْ إِنَّ مِنْ أَهَمِّ شُرُوطِ الدَّعْوَةِ الصَّحِيحَةِ «الْبَدَاءَةُ بِالْأَهَمِّ
فَالْأَهَمُّ: وَذَلِكَ بِأَنْ يَدْعُوا -أَوَّلًا- إِلَى إِصْلَاحِ الْعَقِيدَةِ
بِالْأَمْرِ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ، ثُمَّ الْأَمْرُ
بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرْكِ
الْمُحَرَّمَاتِ، كَمَا هِيَ طَرِيقَةُ الرِّسَالِ جَمِيعاً، كَمَا قَالَ
-تَعَالَى-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وَقَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١)
وغير ذلك مِنَ الْآيَاتِ.

وَلَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي
قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةٌ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ
عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ...»^(١) الْحَدِيثُ.

(١) مِنْ مَقْدَمَةِ الشَّيْخِ صَالِحِ الْفُوزَانِ لِكِتَابِ «مَنْهَجُ الْأَنْبِيَاءِ...» (ص ٥).
وَالْحَدِيثُ: مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وفي طريقته وسيرته بصريحته في الدعوة خير قُدوة وأكمل منهج؛ حيث مكث بصريحته في مكة عشر سنوات يدعو الناس إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك قبل أن يأمرهم بالصلاة والزكاة والصوم والحج، وقبل أن ينهاهم عن الربا، والزنا، والسرقة. وقتل النفوس بغير حق^(١).

وما زال يُحذّر من الشرك - بصوره وألوانه - إلى حين وفاته، وحوله صفوة الصفوة من خيار أصحابه.

فهذه - إذاً - هي «غاية الدين الحقيقية، والغاية من خلق الجن والإنس، والغاية من بعثة الرسل وإنزال الكتب»^(٢).

فجَهَلَةُ (الواقع) تعميهم حماستهم (المحمومة) عن الإدراك (الحقيقي) لهذه الأولوية، لا أقول: «بأقوالهم»؛ فإن (منهم) مَنْ يُردّدون معنا: أن التوحيد أهمُّ المهمّات! لكنَّ «أحوالهم» و«أفعالهم» تُنادي بالتكرار على تلك (الشعارات) الزائفة التي يُرادُّ منها الالتقاء في (منتصف الطريق) مع بعض الجماعات الدعوية المنحرفة عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله - سبحانه -!

(١) من مقدمة الشيخ صالح الفوزان لكتاب «منهج الأنبياء...» (ص ٥).

(٢) «منهج الأنبياء» (ص ١٠٨) للشيخ ربيع بن هادي.

وَمِنْ أَمْثَلِ (عَدَمِ التَّمْيِيزِ) (الوَاقِعِيَّةِ): لَهْجُ كَثِيرٍ مِّنْ دُعَاةِ
«فقه الواقع» و(أَشْبَاهِهِمْ) بِالْدُعْوَةِ إِلَى (الْحَاكِمِيَّةِ)!

وَيُرِيدُونَ بـ (الْحَاكِمِيَّةِ): إِقَامَةَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ!

وَلَقَدْ أَذَاهُمْ (لَهْجُهُمْ) وَ (انْشَغَالُهُمْ) إِلَى فَوْتِ إِدْرَاكِ
«أَنَّ مُوجِبَاتِ الْإِهْتِمَامِ بِالْدُعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ قَائِمَةٌ (الْيَوْمَ)
عَلَى أَشَدِّهَا كَمَا هِيَ فِي عُهُودِ النُّبُوَاتِ كُلِّهَا بِمَنْ فِيهِمْ
مُحَمَّدٌ ﷺ أَوْ أَشَدُّ».

فَهَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ ذَلِكَ عَاقِلٌ مُنْصَفٌ؟!

وَهَلْ يَقُولُ - أَوْ يَعْتَقِدُ - مُسْلِمٌ وَاعٍ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ
مِثْلُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْقُرُونِ الْمُفَضَّلَةِ لَا يَسْتَمْدُونَ عَقَائِدَهُمْ
وَعِبَادَاتِهِمْ إِلَّا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْحَاكِمِيَّةِ - بِمَفْهُومِهَا الشَّرْعِيِّ
الصَّحِيحِ -^(١) وَتَطْبِيقَهَا: أَمْرٌ مِهِمٌّ وَهُمْ كُلُّ مُسْلِمٍ يَفْهَمُ
الْإِسْلَامَ - إِذَا رُوِّعِيَتْ شُرُوطُهَا - ، وَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ مِهِمٌّ وَعَظِيمٌ.

(١) انظر -لزاماً- كتابي «صيحة نذير...» (ص ٨٠-٩٥).

لكننا نتساءل: هل الدعوة إلى الحاكمية تستلزم الإهمال
أو التقصير في أصل من أصول الإسلام؟

وهل تحكيم شرع الله - سبحانه - خاص بالراعي دون
الرعية؟!

الجواب: لا .

«إن حاكمية الله يجب أن تبدأ من أعظم شيء في
الإسلام؛ ألا وهو الاعتقاد في الله، وفي أسماء جلاله،
وصفات كماله، كما تعرّف الله إلينا بها في كتابه العظيم،
وكما علّمنا نبينا الكريم ﷺ، لِمَتَمَتَّلَى قلوبنا بها نوراً
وإيماناً، وبقيناً وإعظاماً وإجلالاً»^(١).

وأولوية الدعوة للعقيدة يجب أن تكون مُرافقةً لمراحل
الدعوة كافة؛ لأهميتها في بناء النفوس، وموقعها في إصلاح
العقول، دون تغليب (للسياسات) - أو الحماسات - عليها،
أو تقديم لـ (العواطف) عليها! ولو بلسان الحال - كما
ذكرنا - دون المقال!!

(١) «منهج الأنبياء» (ص ١٣٠).

تاسعاً: الغُلُو:

وهو (الثمرة) الطبيعية لـ (شجرة) خَلَطِ (الأوراق)
واختلاط (الأولويات)!

فترى (النَّقْمَة) الظاهرة (المُتَنَامِيَّة) على الأوضاع الحياتية
للمجتمعات (الإسلامية) ذات النُّظُم (الجاهلية)! وَحَقَّ لهذه
النَّقْمَة أَنْ تكونَ: بَرَاءَةً مِنَ المعاصي، وَأَنْخِلَاعاً مِنْ أمرِ
الجاهلية، وَلَكِنْ (استفحالتها) وَعَدَمَ ضَبْطِهَا يُؤَلِّدُ الوَضْمَةَ
بالتكفير لهذه المُجتمعات؛ إِمَّا مِنْ حَيْثُ الحُكَّام (غالباً)، وَإِمَّا
مِنْ حَيْثُ المحكومون نتيجةً واسترسالاً!! وهذا غُلُوٌّ لَا نَعَاءَ لَهُ!

والله رَبُّنا -سُبْحَانَهُ- يُرِيدُنَا (وَسَطاً) بَيْنَ المُتَنَاقِضَاتِ،
و(عَدْلًا) بَيْنَ المُتَبَايِنَاتِ، دُونَ مُيُوعَةٍ وَلَا تَعُتُّ، وَمِنْ غَيْرِ
تَسَيُّبٍ وَلَا تَنْطُعٍ!

وهذا (الغُلُوُّ) مُؤَلِّدٌ لِلْعَجَلَةِ والاستعجال^(١)، وَهِيَ مِنْ
أَعْظَمِ (أَمْرَاضِ) الدُّعَاةِ فِي هَذَا العَصْرِ، وَمَنْ نَظَرَ... اعْتَبَرَ!!
وعُلَمَاؤُنَا يَقُولُونَ: «مَنْ تَعَجَّلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أَوَانِهِ عُوقِبَ
بِحَرَمَانِهِ»!

(١) وانظر ما سيأتي (ص: ٩٦-١٠١) حول أسباب إبطاء النصر.

عاشرا: الرضا بالديمقراطية وأساليبها الرديئة:

وهذا من أخطر ما (يُتَوَقَّع) حُصولُهُ إذا ما وَلَجَ بعضُ (الدُّعاة) «فقه الواقع» مُختلطةً أوراقهم، مبعثرةً أولوياتهم!

إذ هم بفتحهم (هذا) لا يستطيعون الانفكاك عن (الواقع) الذي يُراد من خلاله الكيدُ بهم، وتشيتُ كلمتهم، وتفريقُ جموعهم، وسلخُهم عن مناهجهم الوفيّة بأساليب (أولئك) الغويّة!

ويُلَبَّسُ الشياطينُ -من الإنس أو الجن- على عُقول هؤلاء (الدُّعاة) قائلين: «إذا لم تُشاركوا أنتم (أيها المسلمون) في (أطر) الديمقراطية و(صورتها): سيشارك غيرُكم من الشيوعيين والعلمانيين والمُلحدين...»!!

لا، فليشارك هؤلاء المنحرفون الضالُّون! فهذا أهونُ -شرعاً وواقعاً- من مُشاركتنا!! وهذا من وجهين:

الأول: أن في هذا ارتضاءً للديمقراطية، ودُعائها، وأربابها، وأساليبها، ومنهجها؛ وذلك بالمشاركة فيها، والولوج ضمن دائرتها، والاستغلال بطلّها!!

وهذا يجعل جماهير الناس يأخذون السُّمعةَ (الطيبة) عن هؤلاء (المنحرفين) الذين سَمَحُوا للمُسلمين (!) بالدُّخول في البرلمان، أو (المشاركة) في الحُكْم!! فيقولون: «إذا شاركتموهم... وقاسمتموهم: فلماذا تُنكرون عليهم؟!».

وهذا مُوجبٌ لإيجاد التناقض بين الفِعال والمقال؛ إذ «إننا نقولُ للجماهير في كُلِّ مناسبةٍ: إِنَّ الحُكْمَ بغير ما أنزل الله باطلٌ، وإنَّه لا شرعيةَ للحُكْم الذي لا يحكُمُ بشريعة الله... ثم تنظرُ الجماهيرُ فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لِعَدَم المشاركة فيه! فكيف تكون النتيجة؟!»^(١).

ثانياً: «تَمِيعُ قَضِيَّةِ الإِسْلامِ في نَظَرِ الجَماهير، وزوالُ تفرُّدِهِم وتَميُّزِهِم الذي كان لَهُم يومَ أن كانوا يَقِفُونَ مُتَمَيِّزِينَ في السَّاحة، لا يُشاركون في جَاهِلِيَّةِ السِّيَاسَةِ مِنْ حَوْلِهِم، ويعرفُ النَّاسُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ قَضِيَّةٍ أَعْلَى وَأَشْرَفُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ التَّشْكِيلاتِ السِّيَاسِيَّةِ الأُخْرَى التي تَريدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وحَدها... وتَتَصَارَعُ وتَتَكَالَبُ على مَتاع الأَرْضِ... ولا تَعْرِفُ في سِيَاسَتِهَا الأخلاقَ الإِسْلامِيَّةَ... ولا المَعانِي الإِسْلامِيَّةَ، فَضْلاً عن مُناداتِها بالشَّعاراتِ الجَاهِلِيَّةِ، وإِعْراضِها عن تحكيمِ شريعةِ الله.

(١) «واقعا المعاصر» (ص ٤٦٤)!!.

ولم يحدث مرةً واحدةً -في لعبة الدبلوماسية- أن استطاع المُستضعفون أن يُديرُوا دَقَّةَ الأمور من داخل التنظيمات السياسية التي يُريدُها أعداؤهم؛ لأنَّ «التُّرس» الواحد لا يتحكَّم في دَوْرانِ العَجَلَةِ، ولكنَّ العَجَلَةَ الدائِرَةَ هي التي تتحكَّم في «التُّرس»!

وما [قد] يَحْدُثُ مِنْ «إصلاحات» جُزئية عارضة في بعض نواحي الحياة -على يد «الإسلاميين»-: لا تُطِيقُهُ الجاهليَّة ولا تصبرُ عليه، وسُرْعَانِ ما تَمْحُوهُ مَحْوًا وتُبْطِلُ آثاره.

وتَظَلُّ الآثارُ السيئةُ التي يُنْشِئُهَا (تَمِيع) القضية باقيةً لا تزولُ، وشرُّها أكبر بكثيرٍ مِنْ النفعِ الجُزئي الذي يَتَحَقَّقُ بهذه المشاركة^(١).

قلت:

فتلك عَشْرَةٌ كامِلة . . . ناصِبةٌ عامِلة!!



(١) «واقِعنا المعاصر» !!.

(٧)

وَأَقِمْ فِيقَهُ

فِي (فِقَهُ الْوَأَقِمْ)

وذلك قائمٌ على أصولٍ أربعةٍ :

أولاً : قاعدةُ الدعوةِ إلى الله :

«امْتَاَزَتْ دعوةُ الأنبياءِ وجهودُهم بتجرُّدِها من التفكيرِ في المنافعِ الماديةِ والشَّمراتِ العاجلةِ، فكانوا لا يبتغون بدعوتِهِم وجهادِهِم إلَّا وجهَ الله، وامثالَ أوامِرِهِ، وتأديةَ رسالَتِهِ.

تجرَّدَتْ عقولُهم وأفكارُهم من العملِ للدُّنيا، ونيلِ الجاهِ، وكَسَبِ القُوَّةِ لأسرَتِهِم أو أتباعِهِم، والحُصولِ على الحكومةِ، حتَّى لم يَخْطُرْ ذلك ببالِ أصحابِهِم وأتباعِهِم.

وكانت هذه الحكومةُ التي قامتْ لهم في وقتِها، والقُوَّةُ التي حَصَلَتْ لهم في دَوْرِها لم تَكُنْ إلَّا جائزةً من الله، ووسيلةً لِلوُصولِ إلى أهدافِ الدينِ، وتنفيذِ أحكامِهِ، وتغييرِ المجتمعِ، وتوجيهِ الحياةِ، كما قال الله - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا

بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوُا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٠﴾

ولم تكن الحكومة -قط- غايةً من غاياتهم، أو هدفاً من أهدافهم، أو حديثاً من أحاديثهم، أو حُلماً من أحلامهم؛ إنما كانت نتيجةً طبيعيةً للدعوة والجهاد، كالثمرة التي هي نتيجةً طبيعيةً لِنُموِّ الشجرة وقُوَّةِ إثمارها.

ولقد بعثَ الله - سبحانه - نبيَّه محمداً ﷺ؛ فدعا الناسَ إلى الإسلام، فالتفت حوله ﴿فَتَبَيَّنَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، وكان هؤلاء الفتيان هدفَ كُلِّ قُوَّةٍ وظلم واضطهادٍ وبلاءٍ وعذاب، وقد قيل لهم -من قبل-: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْنًا وَأَهُمَ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، فصمدوا لكلِّ ما وَقَعَ لهم، وثبتوا كالجبال، وقالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ حتَّى أذنَ الله في الهجرة، ولم تزل الدعوة تشقُّ طريقها، وتؤتي أكلها، حتَّى قضى الله أن يحكمَ رجالُها في العالم، ويقيموا القسط، ويخرجوا الناسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سَعَتِها، فقد عَلِمَ أَنَّهُمْ إِذَا تَوَلَّوْا وَسَادُوا: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوُا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة [لا العكس]؛ كما تأتي الأمطار بالخشب والزرع، وكما تأتي الأشجار بالفاكهة والثمر؛ فلم تكن هذه الحكومة إلا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الإسلامية، ولم تكن هذه العزة والقوة إلا نتيجة ذلك العذاب الذي تحمّلوه من قريش وغيرهم، وذلك الهوان الذي نقوه في مكة وغيرها.

وفرق كبير بين الغاية التي تقصد، والنتيجة التي تظهر:

ويظهر هذا الفرق في نفسية العامل والساعي: فالذي يقصد الحكومة يتوانى ويتعذر إذا لم ينلها أو انقطع أملُه فيها، ويشغل بها عن الدعوة، ويطغى إذا نالها.

وخطر على كل جماعة تتكون عقليتها بحب الحكومة والسعي لها أن تتعد عن الجهاد في سبيل الدعوة أو تنحرف وتزيغ عن قصدتها، لأن أساليب الوصول إلى الحكومة تخالف أساليب الدعوة^(١)!!

وواقع دُعاة (السياسة) من أدل دليل على ذلك!!

(١) من أول هذا المبحث إلى هنا اقتباس من رسالة «أريد أن أتحدث إلى الإخوان» (ص ٢٠-٢٢) لأبي الحسن الندوي!!

وهذا كُلُّهُ يُظْهِرُ بِجَلَاءٍ «أَنَّ رِضَا اللَّه - تَعَالَى - فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْفُوزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، وَمُوَافَقَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هِيَ الْغَايَةُ، وَكُلُّ مَا عَدَاهَا مِنْ جُحُودٍ وَمُحَاوَلَاتٍ، وَجَمَاعَاتٍ، وَقِيَادَاتٍ، وَنُظُمٍ، وَحُكُومَاتٍ: وَسَائِلُ تَخَضُّعٍ لِلْغَايَةِ، وَتُسْتَعْمَلُ لِصَالِحِ الْإِسْلَامِ»^(١)، فَلَا يَجُوزُ - أَلْبَتَّةَ - الْخَلْطُ بَيْنَ الْوَسَائِلِ وَالْغَايَاتِ فِي مَسَائِلَ هِيَ أَعْلَى وَأَهَمُّ الْمَهْمَاتِ.

ثَانِيًا: التَّائِي وَعَدَمُ الْعَجَلَةِ:

فَوَاقِعُ الْفَقْهِ (الشَّرْعِيِّ) - بِحَقِيقَتِهِ وَأَصَالَتِهِ - يُنَادِي الدُّعَاةَ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - أَنْ يَتَمَسَّكُوا تَمَسُّكًا قَوِيًّا بِكِتَابِ رَبِّهِمْ - جَلَّ شَأْنُهُ -، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، مُهْتَدِينَ فِي سَبِيلِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ بِتِلْكَ (الثَّوَابِتِ) الْقَرَأَنِيَّةِ، دُونَ الْإِنْخِدَاعِ أَوْ الْإِنْجِرَارِ وَرَاءَ (الْمُتَغَيِّرَاتِ) السِّيَاسِيَّةِ، أَوْ (لُعْبَةِ الْأُمَمِ) الدَّوْلِيَّةِ!!

وَلَا آفَةَ عَلَى مَنْ (اخْتَلَطَتْ) عَلَيْهِ أَوْرَاقُ (وَأَقَاعِ الْفَقْهِ) بِأَوْرَاقِ (فَقْهِ الْوَأَقَعِ) أَكْبَرُ مِنَ (الْعَجَلَةِ)، وَأَشَدُّ مِنَ (الِاسْتَعْجَالِ)، فَيُدْفَعُهُمْ هَذَا إِلَى أَنْ يَصْرُخُوا قَائِلِينَ:

(١) «التفسير السياسي للإسلام» (ص ١) للتذوي!!

إلى متى هذا (الواقع) الذي نعيشه بالأمه، وظلامه؟!
إلى متى سيبقى (الإسلام) بعيداً عن (الحكم) بين
الناس؟!!

إلى متى سيرتفعُ هذا الذُّلُّ الذي أصابَ (الإسلاميين)
على (أكتاف) (العلمانيين) ومَن شاكلهم مِن الظَّلَمَةِ
والمُجرمين؟!!

إلى متى...؟! إلى متى؟!!

.. أسئلةٌ يدفعُ بعضها بعضاً... واستفساراتٌ تتسابقُ
صدوراً ووروداً! مِن شبابٍ حائرٍ يُريدُ (النَّصْرَ) للإسلام،
و(المَجْدَ) للأُمَّة!

لكن: هل ثَمَّةَ نَصْرٍ أو مَجْدٍ بغيرِ مقوِّماتٍ ودوافع؟!
هل ثَمَّةَ عِزٍّ أو رِفْعَةٍ بغيرِ نَهْجٍ قويِّمٍ، وصراطٍ مستقيمٍ؟!
هل ثَمَّةَ فلاحٍ أو سؤددٍ بغيرِ دعوةٍ دُؤوبَةٍ وتَغْيِيرٍ حقيقيٍّ؟!
إذا أَجَبْنَا بواقع (حيٍّ) على هذه الأسئلةِ نرى الأجوبةَ
(الحقيقيةة) لتلك الاستفسارات؛ (واقعا) عملياً، وتطبيقاً
(حياتياً)، وثماراً جانية، وقطافاً (دانية)...

وهذا كُلُّهُ يُرْشِدُنَا إِلَى قَاعِدَةٍ هَامَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ فَهْمِ الدِّينِ
وَالْعَمَلِ بِهِ، وَهِيَ قَاعِدَةُ «قَصْرِ النَّظَرِ عَلَى الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ
الَّتِي نَحْنُ فِيهَا»؛ دُونَ التَّطَلُّعِ وَالتَّشَوُّفِ إِلَى أَمْرِ نَحْنُ دُونَهُ
(الْآن) -مُرتَّبٌ عَلَى (الْحَالِ) الَّتِي نَصِلُ إِلَيْهَا، وَمَبْنِيٌّ عَلَى
(الْمَرْتَبَةِ) الَّتِي (سَنَقِفُ) عَلَيْهَا-:

قَالَ الْعَلَامَةُ السَّعْدِيُّ فِي «القَوَاعِدِ الْحَسَنَةِ لِفَهْمِ الْقُرْآنِ»
(ص ١٣٦-١٣٨) شَارِحاً مُبَيَّنّاً:

«وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْجَلِيلَةُ دَعَا إِلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ،
وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَدُلُّ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُرَقِّئُ
الْعَالَمِينَ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ:

فَإِنَّ الْعَامِلَ إِذَا اشْتَغَلَ بِعَمَلِهِ الَّذِي هُوَ وَظِيفَةٌ وَقْتُهُ،
قَصَرَ فِكْرَهُ وَظَاهَرَهُ وَبَاطَنَهُ عَلَيْهِ: فَيَنْجَحُ وَيَتِمُّ لَهُ الْأَمْرُ
بِحَسَبِ حَالِهِ.

وَإِنْ تَشَوَّقَتْ نَفْسُهُ إِلَى أَعْمَالٍ أُخْرَى - لَمْ يَجِزْ وَقْتُهَا
بَعْدَ - شُغْلِهَا بِهَا، ثُمَّ اسْتَبَعَدَ حَصُولَهَا، فَفَتَرَتْ عَزِيمَتَهُ،
وَانْحَلَّتْ هِمَّتُهُ، وَصَارَ نَظَرُهُ إِلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَى كَلِيلًا
يَنْقُصُ مِنْ إِتْقَانِ عَمَلِهِ الْحَاضِرِ وَجَمَعَ الْهَمَّةَ عَلَيْهِ.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته^{١٠}
وقل نشاطه.

وَرَبِّمَا كَانَ الثَّانِي مُتَوَقِّفًا عَلَى الْأَوَّلِ فِي حَصُولِهِ أَوْ تَكْمِيلِهِ، فَيَقُوتُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي، بِخِلَافِ مَنْ جَمَعَ قَلْبَهُ وَقَالَ بِهِ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ فِي وَقْتِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا جَاءَ الْعَمَلُ الثَّانِي يَأْتِيهِ مُسْتَعِدًّا لَهُ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ جَدِيدَيْنِ حَصَلَهُمَا مِنْ نَشَاطِهِ وَقُوَّتِهِ فِي الْأَوَّلِ، فَيَتَلَقَّاهُ بِشَوْقٍ وَعَزِيمَةٍ فَيُفْلِحُ فِيهِ وَيَنْجَحُ، وَهَكَذَا هُوَ - أَبَدًا - مُتَجَدِّدُ الْقُوَى.

ومن هذا: قوله- تعالى- مُصَرِّحاً بهذا المعنى في سورة النساء:- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾؛ فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعدة الله، ضعفوا، فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا عنه كُلَّ الضَّعْفِ!

ونظير هذا ما عاتب الله به أهل أُحُدٍ في قوله - في سورة
آل عمران -: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ
رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ .

وقد كَشَفَ هذا كُلَّ الكَشَفِ قَوْلُهُ - تعالى - في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْبُنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ على أَنَّ فيه تكميلاً لِلْعَمَلِ الْأَوَّلِ، وَتَثْبِيتاً مِنَ اللَّهِ، وَتَمَرُّناً عَلَى الْعَمَلِ الثَّانِي.

وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ - تعالى - في سورة التوبة: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

فَاللَّهُ أَرْشَدَ الْعِبَادَ أَنْ يَكُونُوا أَبْنَاءَ وَقْتِهِمْ، وَأَنْ يَقُومُوا بِالْعَمَلِ الْحَاضِرِ وَوُضُفِيَّتِهِ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ الْعَمَلُ الْآخِرُ صَارَ وَضُفِيَّةَ ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ فَاجْتَمَعَتِ الْهَمَّةُ وَالْعَزِيمَةُ الصَّادِقَةُ عَلَيْهِ، وَصَارَ الْقِيَامُ بِالْعَمَلِ الْأَوَّلِ مُعِيناً عَلَى الثَّانِي.

وهذا المعنى في القرآن كثير.

قلتُ:

بهذا - وبهذا فقط - يصيرُ «فقه الواقع» واقعاً فقهياً تطبيقياً، لا مجرد كلام نظري، أَوْتَمَنَ قَلْبِي!

وفي الآيات الكريمة من سورة النساء - التي أشار إليها
العلامة السعدي - رحمه الله - أكبر عبرة، وأعظم عظة:

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنِ أُولَئِكَ يَحْمِلُونَ كُفْرَهُمْ كَيْفَ هُمْ إِذَا فُزِقُوا مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْفِتْنُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

ونحوها آيات سورة البقرة - من قبل -:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ بَدَنِهِمْ فِي كِتَابٍ إِذْ جَاءُوا بِالنُّوحِ وَآلِهِ بِالسَّيْلِ يَوْمَ اتَّخَذْتُمُ الْغُرُفَ مُقَامًا وَاذُنًا حَسِيرًا خَلَّاهُمْ مِنْكُمْ وَآلَ هَارُونَ فَطَحْنَا لَهُمُ الْبَابَ وَخُفِّرْنَا عَنْهُمْ لَيْسَ بِالْكَافِرِينَ﴾.

فهذه آيات جليلة تعد - أيضاً - من ثوابت «فقهِ
الواقع»^(١)؛ فمن أجوائها نتحرك... وعبر أصدائها ننطلق:
انظروا إلى الملاء هؤلاء... «لقد اجتمعوا إلى نبي لهم،

(١) انظر ما سبق (ص ٣٢).

وطلبوا إليه أن يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكاً يَقَاتِلُونَ تَحْتَ إِمْرَتِهِ «فِي سَبِيلِ
لِلَّهِ» . . . وَهَذَا التَّحْدِيدُ مِنْهُمْ لَطَبِيعَةِ الْقِتَالِ ، وَأَنَّهُ فِي «سَبِيلِ
لِلَّهِ» يَشِي بِانْتِفَاضَةِ الْعَقِيدَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيَقْظَةُ الْإِيمَانِ فِي
نُفُوسِهِمْ ، وَشُعُورِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ دِينٍ وَعَقِيدَةٍ وَحَقٍّ ، وَأَنَّ
أَعْدَاءَهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ وَكُفْرٍ وَبَاطِلٍ ؛ وَوُضُوحِ الطَّرِيقِ أَمَامَهُمْ
لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَهَذَا الْوُضُوحُ وَهَذَا الْحَسْمُ هُوَ نِصْفُ الطَّرِيقِ إِلَى
النَّصْرِ .

فَلَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَّضِحَ فِي حِسِّهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ ، وَأَنَّ
عَدُوَّهُ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ فِي حِسِّهِ الْهَدَفُ . . .
فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . فَلَا يُغَشِّيه الْغَبْشُ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ إِلَى
أَيْنَ يَسِيرُ !

وَقَدْ أَرَادَ نَبِيُّهُمْ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ صِدْقِ عَزِيمَتِهِمْ ، وَثَبَاتِ
نِيَّتِهِمْ ، وَتَضَمُّيمِهِمْ عَلَى التُّهُوُّضِ بِالتَّبَعَةِ الثَّقِيلَةِ ، وَجَدَّهُمْ
فِيمَا يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ .

قَالَ : ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا
تُقَاتِلُوا ؟ ﴾

أَلَا يُنْتَظَرُ أَنْ تَنْكُلُوا عَنْ الْقِتَالِ إِنْ فُرِضَ عَلَيْكُمْ؟ فَأَنْتُمْ
الْآنَ فِي سَعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ، فَأَمَّا إِذَا اسْتَجَبْتُ لَكُمْ، فَتَقَرَّرَ الْقِتَالُ
عَلَيْكُمْ، فَتَلِكُ فَرِيضَةٌ - إِذَنْ - مَكْتُوبَةٌ؛ وَلَا سَبِيلَ بَعْدَهَا إِلَى
النُّكُولِ عَنْهَا. . . .

إِنَّهَا الْكَلِمَةُ اللَّائِقَةُ نَبِيِّ، وَالتَّائِكُ الدَّائِقُ نَبِيِّ، فَمَا يَجُوزُ
أَنْ تَكُونَ كَلِمَاتُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوَامِرُهُمْ مَوْضِعَ تَرَدُّدٍ أَوْ عَبَثٍ
أَوْ تَرَاخٍ.

وَهُنَا ارْتَفَعَتْ دَرَجَةُ الْحِمَاسَةِ وَالْفَوْرَةِ؛ وَذَكَرَ الْمَلَأُ أَنَّ
هَنَّاكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْحَافِرَةِ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا يَجْعَلُ
الْقِتَالَ هُوَ الْأَمْرَ الْمُتَعَيِّنَ الَّذِي لَا تَرُدُّ فِيهِ:

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُهَيَّجَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ
دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾.

وَنَجِدُ أَنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ فِي حِسِّهِمْ، مُقَرَّرٌ فِي
نَفْسِهِمْ. . . . إِنَّ أَعْدَاءَهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَلَدِينِ اللَّهِ، وَقَدْ
أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ وَسَبَّوْا أَبْنَاءَهُمْ؛ فَقِتَالُهُمْ وَاجِبٌ؛
وَالطَّرِيقُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي أَمَامَهُمْ هِيَ الْقِتَالُ؛ وَلَا ضَرُورَةَ إِلَى
الْمَرَاجَعَةِ فِي هَذِهِ الْعَزِيمَةِ أَوْ الْجَدَالِ. . . .

ولكنَّ هذه الحماسة الفائرة في ساعة الرخاء لم تَدُم . .
﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ .

وهنا نَطَّلَعُ على سِمَةٍ خاصَّةٍ في نقْضِ العَهْدِ، والنِّكثِ
بالوَعْدِ، والتفلُّتِ من الطاعةِ، والنكوصِ عن التكليفِ،
وتفرُّقِ الكلمةِ، والتَّوَلَّى عن الحقِّ اليِّن . .

وهذه - كذلك - سِمَةٌ كُلِّ جماعةٍ لا تَنْضِجُ تَرْبِيَّتُهَا
الإيمانية؛ فهي سمةٌ بشريةٌ عامَّةٌ لا تُغَيِّرُ منها إِلَّا التَّريَّةُ
الإيمانيةُ العاليةُ الطويلةُ الأمدِ العميقةُ التأثيرُ .

وهي - مِنْ ثَمَّ - سِمَةٌ ينبغي للقيادة أن تكونَ منها على
حَذَرٍ، وأن تَحْسِبَ حسابها في الطريقِ الوَعْرِ، كي لا تُفَاجَأَ
بها، فيتعاظَمَها الأمرُ! فهي مُتَوَقَّعةٌ من الجماعاتِ البشريةِ
التي لم تَخْلُصْ مِنَ الأَوْشَابِ، ولم تُصْهَرْ، ولم تُطَهَّرْ مِنْ
هَذِهِ العَقَائِلِ .

والتعقيبُ على هذا التَّوَلَّى :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

وهو يَشِي بالاستنكارِ؛ وَوَصَمَ الكثرةَ التي تَوَلَّتْ عن هذه
الفريضة - بعد طَلَبِهَا - وَقَبْلَ أن تُواجهَ الجهادَ مواجهةً

عَمَلِيَّةٌ... وَصَمَهَا بِالظُّلْمِ، فَهِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا، وَظَالِمَةٌ لِنَبِيِّهَا، وَظَالِمَةٌ لِلْحَقِّ الَّذِي خَذَلَتْهُ وَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّهُ الْحَقُّ، ثُمَّ تَتَخَلَّى عَنْهُ لِلْمُبْطِلِينَ!«^(١).

هذا هو الدرسُ بآماله وآلامه، يُنادي (الدُّعاة)، يَسْتَصْرِخُ (الشُّباب)... يُحَرِّكُ النفوسَ، يُدْهِدُهُ (العقول)، لِتَقْرِيرِ قَاعِدَةٍ (دَعْوِيَّةٍ) مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ (فَقْهِ الْوَاقِعِ) مُنْبَعَثَةٌ مِنْ (وَاقِعِ الْفَقْهِ) الَّذِي تَعِيشُهُ الْأُمَّةُ بِدُعَاتِهَا وَعُلَمَائِهَا:

إِنَّهَا قَاعِدَةٌ (الْجِدِّ) فِي مُعَامَلَةِ (الوَاقِعِ)، دُونَ الرُّكُونِ إِلَى (الْحِمَاسَةِ) وَ(التَّهَوُّرِ) الْمُودِي إِلَى الْأَنْقِطَاعِ فِي مُتَنَصِّفِ الطَّرِيقِ، دُونَ وَصُولٍ إِلَى الْغَايَةِ الْمَرْجُوَّةِ؛ إِذْ «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ حِمَاسَةً وَانْدِفَاعاً وَتَهَوُّراً، قَدْ يَكُونُونَ هُمْ أَشَدَّ النَّاسِ جَزَعاً وَانْهِيَاراً وَهَزِيمَةً عِنْدَمَا يَجِدُ الْجِدُّ، وَتَقَعُ الْوَاقِعَةُ... بَلْ إِنَّ هَذِهِ قَدْ تَكُونُ الْقَاعِدَةُ! ذَلِكَ أَنَّ الْانْدِفَاعَ وَالتَّهَوُّرَ وَالْحِمَاسَةَ الْفَائِظَةَ غَالِباً مَا تَكُونُ مُنْبَعَثَةً عَنْ عَدَمِ التَّقْدِيرِ لِحَقِيقَةِ التَّكَالِيفِ... لَا عَنْ شَجَاعَةٍ وَاحْتِمَالٍ، وَإِصْرَارٍ... كَمَا أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ مُنْبَعَثَةً عَنْ قِلَّةِ الْإِحْتِمَالِ -قِلَّةِ إِحْتِمَالِ الضِّيقِ وَالْأَذَى وَالْهَزِيمَةِ-؛ فَتَدْفَعُهُمْ قِلَّةُ الْإِحْتِمَالِ إِلَى طَلَبِ

(١) «الظلال» (١/٢٦٦)!!

الْحَرَكَةُ وَالِدْفَعُ وَالْإِنْتِصَارُ بِأَيِّ شَكْلٍ، دُونَ تَقْدِيرٍ لَتَكَالِيفِ
الْحَرَكَةِ وَالِدْفَعِ وَالْإِنْتِصَارِ... حَتَّى إِذَا وُجِّهُوا بِهَذِهِ
التَّكَالِيفِ كَانَتْ أَثْقَلَ مِمَّا قَدَّرُوا، وَأَشَقَّ مِمَّا تَصَوَّرُوا، فَكَانُوا
أَوَّلَ الصَّفِّ جَزَعًا وَنُكُولًا وَانْهِيَارًا... عَلَى حِينٍ يَثْبُتُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْسِكُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَيَحْتَمِلُونَ الضِّيقَ
وَالْأَذَى بَعْضُ الْوَقْتِ؛ وَيَعْدُونَ لِلْأَمْرِ عُذَّتَهُ، [طَالِبِينَ الْعَوْنَ
مِنْ رَبِّهِمْ - سُبْحَانَهُ-]؛ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ تَكَالِيفِ الْحَرَكَةِ،
وَمَدَى احْتِمَالِ النُّفُوسِ لِهَذِهِ التَّكَالِيفِ، فَيَصْبِرُونَ
وَيَتَمَهَّلُونَ، وَيَعْدُونَ لِلْأَمْرِ عُذَّتَهُ... وَالْمَتَهَوِّرُونَ الْمُنْدَفِعُونَ
الْمُتَحَمِّسُونَ يَحْسِبُونَهُمْ -إِذْ ذَاكَ- ضِعَافًا، وَلَا يُعْجِبُهُمْ
تَمَهُّلُهُمْ وَوِزْنُهُمْ لِلْأُمُورِ! وَفِي الْمَعْرَكَةِ يَتَبَيَّنُ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ
أَكْثَرُ احْتِمَالًا؛ وَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَبْعَدُ نَظْرًا!!»^(١).

وَعَلَيْهِ؛ فَإِنَّ أَوَّلَى - وَأَوَّلَى - مَرَاكِلَ الْعَمَلِ الْإِسْلَامِيِّ
الْجَادِّ، بَوْضُوحُهُ وَنَقَائِهِ، بِمَنْهَجِهِ وَصِفَائِهِ، يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
«مَرَحَلَةً بِنَاءٍ وَتَرْبِيَةٍ، وَتَوْجِيهٍِ وَتَصْفِيَةٍ؛ بِنَاءٍ لِعَقْلِهِ وَفِكْرِهِ،
وَتَرْبِيَةٍ لِنَفْسِهِ وَخُلُقِهِ، وَتَوْجِيهٍِ لَانْدِفَاعَاتِهِ وَطُمُوحَاتِهِ وَأَمَالِهِ،
وَتَصْفِيَةٍ لِأَفْكَارِهِ وَمَعْتَقَدَاتِهِ.

(١) «الظلال» (٧١٢/٢)!!

ومرحلة البناء - هذه - تكونُ هادئةً هادفةً، تميّزُ بالسَّعيِ نحو التَّمَكُّينِ، وتكونُ أبعدَ ما يُمكنُ عن الحماسةِ والعاطفةِ، لأنَّ ما في نفسِ الشَّبابِ من حماسةٍ وعاطفةٍ كافيتان لعمَلِه وحَرَكَتِه!

وليس من الحكمةِ في شيءٍ أن نزيدَ حماسةَ الشَّبابِ حماسةً، وعاطفتهَ عاطفةً، فيحصلَ من الثوراتِ ما لا تُحمدُ عُقباهُ، ولا أدلَّ على ذلكِ من هذا الواقعِ، ومن حكمةِ رسولِ الله ﷺ مع أصحابِه في مَكَّةَ^(١).

والواجبُ ضَبْطُ هذا الحماسِ وتوجيهُ هذه العاطفةِ، لا إثارتُهما قبلَ التربيةِ والعِلْمِ، والتوجيهِ والحِلْمِ^(٢).

وثمةَ أمرٌ لا بُدَّ من بيانهِ وإيضاحه، وهو أنَّ كثيراً من (المُستعجلين) تدفعُهُم (حماسَتُهُم)، وتحدوهم (عواطفُهُم) إلى سلوكِ سُبُلٍ تُناقضُ خطَّ سيرِ الدعوةِ الحقيقيِّ، فتراهم يلجؤون إلى (السَّرية) و(التكثُّم) و(التَّمَحُور) و(الانغلاق)!

(١) إذ كانوا مُسْتَضْعَفِينَ، لا حولَ لهم ولا قُوَّةَ.

(٢) «السَّبِيل...» (ص ٤٧).

وهذا -كُلُّهُ- يُناقَضُ حقيقةَ (الدعوة) بوضوحها،
وظهورها وسَعَتِها و (شُمولها):

«فانْطِلَاقاً من الالتزام بمسؤولية الدعوة المُتعلِّقة بِجُمهورِ
المُسلمين، وضرورة إِيصالِ الدعوةِ إلى كُلِّ مكانٍ، ومنْ
خِلالِ إدراكِ طَبِيعَةِ المعركةِ التي تدورُ الآنَ بين دُعاةِ الإسلامِ
وأعدائِهِ، والتي تتركزُ حولَ مفاهيمِ عامَّةِ المُسلمينِ
وعواطفِهِم وأخلاقِهِم:

لا بُدَّ من تَوْسِيعِ دائرةِ العَمَلِ إلى أبعدِ حَدٍّ مُمكنٍ،
والعَمَلِ على تَصْحيحِ المفاهيمِ الإسلاميَّةِ عندَ عامَّةِ
المُسلمينِ، وربْطِ عواطفِ هؤلاء المُسلمينِ وأخلاقِهِم بهذه
المفاهيمِ^(١)، ومُحاوَلَةِ بناءِ الشَّخْصِيَّةِ الإسلاميَّةِ المُتكامِلَةِ
عندهم، تَهيئَةً لَهُمَ لِلاتِّصالِ التَّامِّ بالدعوةِ والالتِحامِ بِها.

ومن أَجْلِ إقامةِ صِلَةٍ حَيَّةٍ بين قاعِدَةِ الدَّعوةِ وجُمهورِها:

لا بُدَّ من إزَالَةِ الحَوَاجِزِ التي تَحُولُ دُونَ وُصُولِ هذه
العَلاقَةِ لأَقْصَى بُعْدٍ مُمكنٍ في ظِلِّ الأَوْضَاعِ القائمةِ، وعلى
الأَخْصَّ تلكَ الحَوَاجِزُ التي أَقامَتُها أَيْدِي الدَّعاةِ في فِترَةٍ ما،

(١) لا بالغوغائيةِ القاتلةِ لِحُبِّ العَمَلِ بِجِدِّ!

نتيجة عَدَم التَّبَيُّنِ الصَّحِيحِ لَطَبِيعَةِ المَرَحَلَةِ، وَالخَطَأِ فِي تَقْدِيرِ مُتَطَلَّباتِهَا.

فالسَّرِّيَّةُ الَّتِي يُرَادُ لَهَا أَنْ تُغَطِّي سَاحَةَ الدَّعْوَةِ، تُشَكِّلُ حَاجِزاً يُعِيقُ حُرِّيَّةَ الدَّعْوَةِ وَيُحْجِمُ نَشَاطَهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يُوجَدُ مَا يَدْعُو إِلَى مِثْلِ هَذَا التَّخَوُّفِ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ السَّرِّيَّةَ قَدْ أَقَامَتْ بَيْنَ الدَّعْوَةِ وَبَيْنَ عَامَّةِ النَّاسِ حَاجِزاً مِنَ التَّخَوُّفِ يَحُولُ دُونَ الْإِتِّصَالِ بِهَا وَالتَّعَامُلِ مَعَهَا، مِثْلَمَا أَسْهَمَتْ سَرِّيَّةُ الْعَمَلِ فِي إِفْرَازِ سَلْبِيَّاتِهَا كَانَتْ لَهَا أْخْطَرُ الْأَثَرِ عَلَى مَسَارِ الْعَمَلِ وَعَلَى مُسْتَقْبَلِهِ، كَازْدِوَاجِ الْوَلَاءِ بَيْنَ الْقَائِدِ الْعَلَنِيِّ وَالْقَائِدِ السَّرِّيِّ (!)، وَتَسَلُّلِ بَعْضِ الْإِنْتِهَازِيِّينَ تَحْتَ سِتَارِ السَّرِّيَّةِ، وَسَرَقَةِ وِلَاءِ الْأَجْهَزةِ الْحَسَّاسَةِ، ثُمَّ تَسْخِيرِهَا لِضَرْبِ الْجَمَاعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ!

كَمَا اسْتِطَاعَ (البَعْضُ) اسْتِغْلَالَ هَذِهِ السَّرِّيَّةَ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْعَمَلِ، وَاتِّهَامِ الدُّعَاةِ بِشَتَّى التُّهْمِ وَالْأَكَاذِيبِ، الَّتِي كَانَ بَعْضُهَا يُتَّخَذُ ذَرِيعَةً لِتَصْفِيَةِ الْعَمَلِ، بَيْنَمَا جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ غَافِلٌ عَنِ حَقِيقَةِ الْمَعْرَكَةِ الَّتِي تَجْرِي تَحْتَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ، وَرَبِمَا بِمُشَارَكَتِهِ!

كما كانت هذه السَّرِيَّةُ - في كثير من الأحيان - سبباً في زرع الشُّكوكِ والظُّنونِ بين الدُّعاةِ أنفُسِهِمْ، باسمِ الحَفَاطِ على هذه السَّرِيَّةِ!

ولا بُدَّ من ترشيدِ إحساسِ الداعيةِ بتميُّزه عن العامةِ، والذي يُفترضُ أن يكونَ عاملاً من عواملِ زيادةِ صَبْرِ الداعيةِ وحِلْمِهِ وحكْمَتِهِ في التعاملِ مع غيره من العامةِ، إلا أنَّه انقلبَ - في كثيرٍ من الحالاتِ - حتى أصبحَ يُولِّدُ الكِبَرِ والاستعلاءَ، وربَّما الكراهيةَ والحقدَ، الذي توظَّفُ لتغذيتهِ بعضُ النُّصوصِ - التي تُؤخذُ على غيرِ وجهها -، والمفاهيمُ المغلوطةُ، ليأخذَ صفةَ التقوى والورعِ الشديدينِ! وليسَ في حقيقتهِ إلا صورةٌ للعجزِ والجهلِ!!

وإنَّ الشَّدَّةَ في مخاطبةِ الناسِ ومُعَامَلَتِهِمْ أو ازْدِرَائِهِمْ، لا تُوجَدُ إلا حينَ يفقدُ الداعيةُ الرؤيةَ السليمةَ لحقيقةِ علاقتهِ بالناسِ، وطبيعةِ المُهمَّةِ المُلقاةِ على عاتقه، وعندما يعجزُ عن التعاملِ الإيجابيِّ وإقامةِ علاقةٍ طيِّبةٍ معَ الناسِ^(١).

(١) «في منهجية الدعوة» (٦٠-٦١) لأحمد سلام.

وفي كتابي «الدعوة إلى الله...» (٦٦-٧٠) فصلٌ بعنوان: «قيود الحزبية»؛ تكلمت فيه عن «السرية» وشيءٍ من سلبياتها.

ثالثاً: السَّيْلُ:

يُؤْخَذُ السَّيْلُ مِنَ الثَّوَابِ الْقَرَّانِيَّةِ^(١) - أيضاً، لا من (تنظيرات) المُفَكِّرِينَ، ولا من أفكار (المُنْظَرِينَ):

قال الله - سبحانه - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وقال - عزَّ شأنه - : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

وقال - تقدَّست أسماؤه - : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

وقال - جلَّتْ قدرتهُ - : ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وقال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

(١) انظر ما سبق (ص ٣٢ و ٨٣).

وقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعَصُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.

وقال: ﴿وَكَايْنٍ مِنَ قَرْيَةٍ عَمَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا﴾.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وها هنا حديثان نبويان يشكّلان - مع هذه الآيات العظيمة - نقطة التقاء، ووضعاً للنقاط على الحروف - كما يقولون -، وصورة منهجية واضحة لنواة التغيير:

الأول: قوله ﷺ: «لا تُهْزَمُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قَلَةٍ»^(١).

الثاني: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

(١) انظر تخريجه مُفَصَّلًا في تعليلي على «جزء لوين» (رقم: ٩) - يسر الله تمامه -.

ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»^(١).

قُلْتُ: فَلَنَجْمَعُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ مَعَ تِلْكَ الْآيَاتِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، لَا كِتَابَةً، أَوْ قِرَاءَةً، وَإِنَّمَا (عِلْمًا) وَ(عَمَلًا)، دَعْوَةً وَ (تَطْبِيقًا)، (فَقْهًا وَاقِعِيًّا) نَحْيَاهُ فِي ظَلَالِ كِتَابِ رَبِّنَا -سُبْحَانَهُ-، وَسُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ، مِنْ غَيْرِ انْحِرَافٍ، أَوْ اسْتِعْجَالٍ، أَوْ تَعَدُّ!

رَابِعًا: الثَّمَرَةُ:

إِذَا عَرَفْنَا (قَاعِدَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ) مَعْرِفَةً حَقَّةً، قَائِمَةً عَلَى دِرَايَةِ الشَّرِيعَةِ، وَفَقْهِ الْأَحْكَامِ التَّطْبِيقِيَّةِ، مُتَجَنِّبِينَ بِأَفْعَالِنَا، وَدَعْوَتِنَا (الْعَجَلَةَ وَالِاسْتِعْجَالَ)، سَائِرِينَ بِتَقْضِ وَأَنَاءٍ عَلَى (السَّبِيلِ) - بَوْضُوهِ وَظَهَارَتِهِ، وَجَلَائِهِ وَنَصَاعَتِهِ -: كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِفْتَاحَ جَنِيِّ (الثَّمَرَةِ) الْيَانِعَةِ، بِكُلِّ مُحَاسِنِهَا، وَبِجَمِيعِ نَتَائِجِهَا.

فَإِذَا انْقَطَعَتْ -بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ- دَوْنَنَا السُّبُلُ، وَلَمْ نَصِلْ إِلَى نَهَايَةِ الطَّرِيقِ، وَلَمْ (نَرَّ) بِأَعْيُنِنَا (الثَّمَرَةَ) دَانِيَةً قَطَافُهَا، فَلَا يَجْعَلُنَا هَذَا نَسْتَيْسِرُ أَوْ تُبْسَلُ نَفُوسُنَا، بَلْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ

(١) انظر تخريجه في رسالتي «الأربعون حديثاً في الدعوة والدعاة» (رقم: ٢).

-بَيِّقِينَ- أَنَّ ذَلِكَ (الْإِبْطَاءَ) فِي النَّصْرِ، إِنَّمَا هُوَ لِحِكْمٍ أَرَادَهَا
اللَّهُ -سُبْحَانَهُ-، هِيَ فَوْقَ عَقُولِنَا، وَفَوْقَ تَصَوُّرَاتِنَا.

قَالَ رَبُّنَا -سُبْحَانَهُ-: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ
الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ﴾، وَقَالَ -عَزَّ شَأْنُهُ-: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ
قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، وَقَالَ -تَبَارَكَ اسْمُهُ-: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

إِنَّ «النَّصَرَ» قَدْ يُطَيَّءُ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، فَيَكُونُ هَذَا الْإِبْطَاءُ
لِحِكْمَةٍ يُرِيدُهَا اللَّهُ.

وَقَدْ يُطَيَّءُ النَّصْرُ لِأَنَّ بُنْيَةَ الْأُمَّةِ الْمُؤْمِنَةِ لَمْ تَنْضَجْ بَعْدُ
نُضْجَهَا، وَلَمْ يَتِمَّ بَعْدُ تَمَامُهَا، وَلَمْ تُخْشَدْ بَعْدَ طَاقَاتِهَا، وَلَمْ
تَتَحَفَزْ كُلُّ خَلِيَّةٍ وَتَتَجَمَّعَ لِتَعْرِفَ أَقْصَى الْمَذْخُورِ فِيهَا مِنْ
قُوَى وَاسْتِعْدَادَاتٍ، فَلَوْ نَالَتِ النَّصَرَ -حِينَئِذٍ- لَفَقَدَتْهُ
وَشَيْكَا؛ لِعَدَمِ قُدْرَتِهَا عَلَى حِمَايَتِهِ طَوِيلًا!

وَقَدْ يُطَيَّءُ النَّصْرُ حَتَّى تَبْذُلَ الْأُمَّةُ الْمُؤْمِنَةُ آخِرَ مَا فِي
طَوْقِهَا مِنْ قُوَّةٍ، وَآخِرَ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ رَصِيدٍ، فَلَا تَسْتَبْقِي
عَزِيزًا وَلَا غَالِيًا لَا تَبْذُلُهُ هَيِّئًا رَخِيصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقد يُطَيءُ النصرُ حتى تُجربَ الأمةُ المؤمنةُ آخرَ قواها،
فتدركَ أنَّ هذه القوى - وحدها بدونِ سندٍ من الله - لا تكفلُ
النصرَ.

إنَّما يتنزَّلُ النصرُ من عند الله عندما تبذلُ الأمةُ آخرَ ما في
طوقِها، ثم تكِلُ الأمرَ بعدها إلى الله.

وقد يُطَيءُ النصرُ لِتَزِيدَ الأمةُ المؤمنةُ صِلَتَها بالله، وهي
تُعاني وتتألمُ وتبذلُ؛ ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا مُتَوَجِّهاً
إلا إليه - وحده - في الضراءِ.

وهذه الصِّلةُ هي الضمانةُ الأولى لاستقامتها على النهجِ
بعد النصرِ عندما يتأذَّن به الله، فلا تطغى ولا تنحرفُ عن
الحقِّ والعدلِ والخيرِ الذي نصَّرها به الله.

وقد يُطَيءُ النصرُ لأنَّ الأمةَ المؤمنةَ لم تتجرَّدَ بعدُ في
كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتلُ لِمَغْنَمٍ
تُحَقِّقُهُ، أو تقاتلُ حَمِيَّةً لِدَاتِها، أو تقاتلُ شجاعةً أُمَامَ
أعدائها!

والله يريدُ أن يكونَ الجهادُ له وحده، وفي سبيله، بريئاً
من المشاعرِ الأخرى التي تلابسُه.

وقد سئل رسول الله ﷺ: الرجلُ يقاتلُ حَمِيَّةً، والرجلُ يُقاتلُ شِجَاعَةً، الرجلُ يقاتلُ لِيُرى؛ فأَيُّها في سَبِيلِ الله؟ فقال: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»^(١).

كما قد يُبطِئ النصرُ لأنَّ في الشرِّ الذي تكافحه الأُمَّةُ المؤمنةُ بقيةً من خيرٍ، يريدُ اللهُ أن يُجَرِّدَ الشرَّ منها لِيَتَمَحَّضَ خَالِصاً، ويذهبَ وحده هالكاً، لا تتلبَّس به ذرَّةٌ من خيرٍ تذهبُ في الغَمَارِ!

وقد يُبطِئ النصرُ؛ لأنَّ الباطلَ الذي تحاربهُ الأُمَّةُ المؤمنةُ لم ينكشفِ زيفُهُ للناسِ تماماً، فلو غلبه المؤمنون حينئذٍ فقد يجدُ له أنصاراً من المَخدوعين فيه لم يُقَتِّنُوا بَعْدُ بفسادهِ وضرورةِ زوالِهِ، فتظلُّ له جذورٌ في نُفوسِ الأبرياء الذين لم تنكشفِ لهم الحقيقةُ، فَيَشَاءُ اللهُ أن يُبْقِيَ الباطلَ حتى يتكشفَ عارياً للناسِ، ويذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليه من ذي بقيةٍ!

(١) رواه البخاري (٢٨١٠) ومسلم (١٩٠٤) عن أبي موسى الأشعري.

وقد يُطىء النصرُ لأنَّ البيئةَ لا تصلحُ -بَعْدُ- لاستقبالِ
الحَقِّ والخيرِ والعدلِ الذي تُمثِّلُه الأُمَّةُ المؤمنةُ، فلو
انتصرت حينئذٍ لَلَقِيتِ مُعارضةً من البيئةِ لا يستقرُّ لها معها
قرارٌ، فيظلُّ الصراعُ قائماً حتى تتهَيَّأ النفوسُ مِنْ حوله
لاستقبالِ الحَقِّ الظافرِ، ولاستبقائه!

مِنْ أَجْلِ هَذَا كُلِّهِ-، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ مِمَّا يَعْلَمُهُ اللهُ- قَدْ
يُطىءُ النصرُ، فتضاعفُ التضحياتُ، وتضاعفُ الآلامُ،
مَعَ دِفَاعِ اللهِ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وتحقيقِ النصرِ لَهُمْ فِي النِّهَايَةِ.

وَلِلنَّصْرِ تَكْلِيفُهُ وَأَعْبَاؤُهُ حِينَ يَتَأَذَّنُ اللهُ بِهِ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ
أَسْبَابِهِ وَأَدَاءِ ثَمَنِهِ، وَتَهَيُّؤِ الْجَوِّ حَوْلَهُ لاسْتِقْبَالِهِ وَاسْتِيقَاءِهِ:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌۚ الَّذِينَ إِنْ
مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۚ أَمُورٌۖ﴾

فَوَعْدُ اللهِ الْمُؤَكَّدُ الْوَثِيقُ الْمَتَحَقِّقُ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ هُوَ أَنْ
يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُهُ.. فَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللهَ،
فَيَسْتَحَقُّوا نَصَرَ اللهِ الْقَوِيَّ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يُهْزَمُ مِنْ يَتَوَلَّاهُ؟

إنهم هؤلاء :

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . . . فحَقَّقْنَا لَهُمُ النِّصْرَ ،
وَوَثَّنَا لَهُمُ الْأَمْرَ . . . ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ ؛ فَعَبَدُوا اللَّهَ ،
وَوَثَّقُوا صَلَاتَهُمْ بِهِ ، وَاتَّجَّهُوا إِلَيْهِ طَائِعِينَ خَاضِعِينَ
مُسْتَسْلِمِينَ . . . ﴿ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ﴾ ؛ فَأَدَّوْا حَقَّ الْمَالِ ،
وَانْتَصَرُوا عَلَى شَحِّ النَّفْسِ ، وَتَطَهَّرُوا مِنَ الْحِرْصِ ، وَغَلَبُوا
وَسْوَاسَةَ الشَّيْطَانِ ، وَسَدَّوْا خَلَّةَ الْجَمَاعَةِ ، وَكَفَلُوا الضَّعَافَ
فِيهَا وَالْمَحَاوِجَ ، وَحَقَّقُوا لَهَا صِفَةَ الْجِسْمِ الْحَيِّ - كَمَا قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ
وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ
الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » ^(١) ، ﴿ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ﴾ . . .
فَدَعَوْا إِلَى الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، وَدَفَعُوا إِلَيْهِ النَّاسَ . . . ﴿ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . . . فَقَاوَمُوا الشَّرَّ وَالْفُسَادَ ، وَحَقَّقُوا بِهَذَا وَذَلِكَ
صِفَةَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي لَا تُبْقَى عَلَى مُنْكَرٍ وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى
تَغْيِيرِهِ ، وَلَا تَقْعُدُ عَنْ مَعْرُوفٍ وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى تَحْقِيقِهِ . . .

هؤلاء هم الذين يُنْصَرُونَ بِاللَّهِ ؛ إِذْ يُنْصَرُونَ نَهْجَهُ الَّذِي
أَرَادَهُ لِلنَّاسِ فِي الْحَيَاةِ ، مُعْتَرِّينَ بِاللَّهِ - وَحْدَهُ - دُونَ سِوَاهُ .
وهؤلاء هم الَّذِينَ يَعِدُّهُمْ اللَّهُ بِالنَّصْرِ عَلَى وَجْهِ
التَّحْقِيقِ وَالْيَقِينِ .

(١) رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير .

فهو النَّصْرُ القائمُ على أسبابه ومقتضياته، المشروطُ بتكاليفه وأعبائه.. والأمرُ بعد ذلك لله، يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَبْدُلُ الهزيمةَ نصراً، والنصرَ هزيمةً، عندما تختلُّ القوائمُ، أو تُهْمَلُ التكاليفُ: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾..

إنَّ النَّصْرَ الذي يُؤَدِّي إلى تحقيقِ المنهجِ الإلهيِّ في الحياة.. من انتصارِ الحقِّ والعدلِ والحرِّيةِ المُتَّجِهَةِ إلى الخيرِ والصَّلاحِ، المنظورِ فيه إلى هذه الغايةِ التي يتوارى في ظلِّها الأشخاصُ والذواتُ، والمطامعُ والشَّهواتُ..

وهو نصرٌ له سببُهُ، وله ثمنُهُ، وله تكاليفُهُ، وله شروطُهُ، فلا يُعْطَى لأحدٍ جُزْأً أو مُحَابَاةً، ولا يَبْقَى لأحدٍ لا يُحَقِّقُ غايَتَهُ ومُقْتَضَاهُ..»^(١).

أقولُ:

هذه هي أماراتُ تأخُّرِ (القِطَافِ)، وعلاماتُ إِبْطَاءِ (الشَّمار)..

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾.

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾.

(١) «الظلال» (٤/٢٤٢٦-٢٤٢٨)!!

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ .

واللهُ ربُّنا - سبحانه - قد بيَّن لنا (وظيفة) نقومُ بها،
(منهجاً) نتمسَّك به، وندعو إليه، غيرَ ناظرين إلى (ثمرة)
نتظرُها، فهذا هو (شأنه) - سبحانه -، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَاِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاِلَيْنَا
يَرْجِعُونَ﴾ .

ويقول - عزَّ شأنه - : ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ
فَاِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ .

ويقول - جلَّتْ قدرته - : ﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَاِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ .

وَمَا أَجْمَلَ مَا قِيلَ - في مثل ذلك - :

بكى صاحبي لما رأى الدَّربَ دُوننا

وَأَيَقَنَ أَنَا لِاحِقُونَ بِقِصْرَا

فقلتُ له : لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا

نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

وأخيراً:

لو تَأَمَّلْنَا (وَاقِعَنَا) الذي نعيشه؛ مِنْ حَيْثُ ضَعُفُ
المسلمين، وَتَشَتَّتْ كَلِمَتُهُمْ، وَتَفَرَّقَ صُفُوفُهُمْ، وَتَمَزَّقَ
بِلَادُهُمْ وَدِيَارُهُمْ، وَسَيْطَرَّةُ الشَّهَوَاتِ عَلَى قُلُوبِهِمْ !

ثم (قَابَلْنَا) ذَلِكَ بِ (وَاقِعِ) الْكُفَرَةِ وَالْمُشْرِكِينَ: قُوَّتَهُمْ
(الْمَادِيَّةِ)، وَصَوَارِيخَهُمْ، وَبَوَارِجَهُمْ، وَأَسْلِحَتَهُمْ،
وَطَائِرَاتِهِمْ، وَأَقْمَارِهِمُ الصَّنَاعِيَّةَ، وَأَسَالِيَهُمُ (التَّجَسُّسِيَّةَ)،
(وَصَنَائِعَهُمُ) (الدَّبْلُومَاسِيَّةَ) (!) وَطَرَائِقَهُمُ (الِاسْتِعْمَارِيَّةَ)
وغير ذلك مِنْ عُدَّةٍ وَعُدَدٍ وَعُدَدٍ !!

فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مُوَاجَهَتِهِمْ بِمِثْلِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ؟

وَهَلْ مِنْ طَرِيقٍ نَزْدُ بِهَا سَيْلَ (جَبَرَوْتِهِمْ) الْعَارِمَ ؟

وَبِخَاصَّةٍ بَعْدَ إِحْكَامِ طَوْقِ «النِّظَامِ الْعَالَمِيِّ الْجَدِيدِ» عَلَى
أَعْنَاقِ (الْأُمَّمِ) وَرِقَابِ الشُّعُوبِ !!

إِنَّ الْجَوَابَ (الصَّحِيحَ) (الْوَحِيدَ) عَلَى ذَلِكَ، بِمُكَاشَفَةِ
(الْثُّفُوسِ) وَصِرَاحَةِ (الْحُقُولِ): هُوَ أَتْنَا لَا يُمَكِّنُ لَنَا -الْيَوْمَ أَوْ
بَعْدَ أَلْفِ يَوْمٍ- وَنَحْنُ عَلَى مِثْلِ مَا نَحْنُ فِيهِ -أَنْ نُوَاجِهَ
هَؤُلَاءِ الْكُفَرَةَ بِمِثْلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ تَفَوُّقٍ (ظَاهِرٍ) فِي الْمَادِّيَّاتِ

والتكنولوجيات، والأسلحة الفتاكات !!

إذاً: ما العمل؟

يُحَدِّثُنَا التاريخُ قصَّةَ وقوعِ لويس التاسع في الأسر،
أثناء الحروب الصليبيَّة الأولى، حيثُ سُجِنَ في المنصورة
[في مِصْرَ] - أَيَّامَ الملك الصالح نجم الدِّين أيُّوب -، إذ
جَعَلَ يُفَكِّرُ في سجنه بالسَّيْلِ الذي يستطيعُ مِنْ خِلالِهِ كَسْرَ
شوكة المسلمين القويَّة (حينذاك)، فلمَّا فَكَّ أسرُهُ، وعادَ
إلى قومه، قال: «إِنَّ التَّغْلِبَ عَلَى المسلمين بالسَّلاحِ وحده
غيرُ مُمَكِّن، وَإِنَّ عَلَى أوروبَّا إذا أرادت التَّغْلِبَ عَلَى
المسلمين أَنْ تُحَارِبَهُمْ مِنْ دَاخِلِ نفوسِهِمْ، وَأَنْ تَقْتُلَعَ العقيدةُ
الإسلاميةُ مِنْ قلوبِهِمْ»^(١).

والتاريخُ - اليوم - يُعيدُ نفسَه - كما يقولون - !!

ولكنْ بصورةٍ عكسيَّةٍ !

فلا يُمكنُ للأُمَّةِ - اليوم - أَنْ تُضَادَّ قوَى الكفرِ المُجمِعةَ،
ولا أَنْ تُواجهَهَا إِلَّا بالقُوَّةِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ، والسَّلاحِ الذي لَا
يُجَابَهُ، و(الإمكانات) التي لَا تَسْتَطِيعُ دَوْلُ الغربِ أو

(١) «في الغزو الفكري» (ص ٨١) نذير حمزان.

(الشرق) - مجتمعة - الحصول عليها:

إنَّها العقيدةُ الصحيحةُ، والمنهجُ القويمُ في فهمِ الدينِ،
والدَّعوةُ الجادةُ لهذا الأصلِ الأصيلِ، تحتَ منارِ العلمِ:
تعلُّماً وتعليماً^(١)، والعملِ: دعوةٌ وجهاداً، إذ «العلمُ هو
سبيلُ معرفةِ آيةِ حقيقةٍ، وهو كذلك سبيلُ معرفةِ حقائقِ
الإسلام:

فالعقيدةُ الصحيحةُ الراسخةُ أساسُها العلمُ، قال الله:
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ ﴾.

وتنظيمُ أخلاقِ الفردِ والمُجتمعِ غيرُ مُمكنٍ إلا بالعلم:
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾.

(١) وهذا هو ما يدعو إليه (علمائنا) منذ عشرات السنين.

وقد تنبَّه لهذا - بعد لأي - عددٌ من الدُّعاة الإسلاميين الذين عايشوا (فقه
الواقع) بصورةٍ كلّها وأشكالها جميعها!

قال صاحبُ كتاب «واقعا المعاصر» (ص ٤٤٢) بعد كلامٍ سابقٍ: «إنَّني
أشعرُ بحقٍّ - بعد تدبُّرِ هذا كلّهِ - أننا اليوم في مقامِ التعليمِ، قبلَ التصدّي
لإصدارِ الأحكامِ على الناسِ، وإنَّ هذا التعليمِ لإزالةِ الغُربةِ الثانيةِ التي تُحيطُ
بالإسلامِ اليوم: يحتاجُ من الوقتِ والجهدِ شيئاً غيرَ قليلٍ، ولكنّه في النهايةِ
سيحسمُ القضيةَ حسماً كاملاً!!»

وَكُلُّ مَفْهُومٍ أَوْ عَمَلٍ لَا يَتَّفِقُ مَعَ الْعِلْمِ وَلَا يَسْتَنْدُ إِلَيْهِ،
فَلَا قِيَمَةَ لَهُ وَلَا اعْتِبَارَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وفقدان العلم أو اختلاله، أسرع طرق الضلال
والانحراف: «... حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ
رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا: فَأَقْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»^(١).

وكذلك تنقص قوة الصبر - أو تزول - بنقص العلم - أو
ذهابه -: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

وكذلك تهترأ أصار الجماعة، وتشيع فيها البغضاء
﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
وَالْبَغْضَاءَ﴾.

وإذا كان للعلم هذه المكانة وهذا الأثر في بناء
المجتمع، وضبط أخلاقه، وصيانة علاقاته، ونحن أمة تعدُّ
نفسها لخوض معركة حضارية قاسية - من أجل استعادة
حيويتها، وإعادة دورها -: فدور الداعية في هذه العملية
ليس هيئاً أو بسيطاً - بحالٍ -، إنه أكثر من مُفتٍ، أو مُربٍّ،
أو مُصلِحٍ، أو مُعلِّمٍ، أو دليلٍ، أو قائدٍ.

(١) رواه البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو.

وإنَّ ما يتوجَّبُ على الدُّعاةِ من أجلِ الوُصولِ إلى مستوى العملِ الجدِّيِّ، استعادةُ الرؤيةِ الحضاريةِ الإسلاميةِ الصافيةِ، وبناءُ الشخصيةِ الإسلاميةِ المتكاملةِ، وحلُّ إشكالاتٍ وحدّةِ العملِ الإسلاميِّ وتناسُّقه، فإنَّ هذا الداعيةَ ما لم يكن عالماً متمكناً، أو مُتعلِّماً على بصيرةٍ، بحيثُ يمتلك أهليّةَ النَّظَرِ والتَّقييمِ الذاتيِّ، وتأسيسِ القناعاتِ الحُرَّةِ المُتَرَنِّةِ، فلا بُدَّ أن تجرِّفه زحمةُ الأحداثِ، ويؤثِّرَ عليه زخمُ الحَرَكَةِ، وإذا به ينقادُ لارتباطاته الشخصيةِ وعواطفه داخلَ الصَّفِّ وأثناء حركته، فيُصبِحُ بينَ أن يتقلَّبَ مع كُلِّ اجتِهَادٍ أو قولٍ، أو ينزلقَ إلى هَوَاةِ التعصُّبِ والتقليدِ الأعمى، فهو في بُنيته -تلكَ- إمعةٌ لا يُجيدُ إلَّا الخُضوعَ والانصياعَ، وهو مُرشَّحٌ -كذلكَ- للإسْهامِ في إقامةِ مَحاورٍ مواجهةٍ داخلِ صُفوفِ الحَرَكَةِ، تعصُّباً لهذا الزعيمِ أو ذاكِ ! وإذا به يَعْمَلُ في نَسفِ بُنيانِ الأُلُفَةِ والجماعةِ، ويضربُ بِسَيْفِ الفُرقةِ والتفتيتِ.

وهذه الصفاتُ تُؤَهِّلُ للانحِرافِ والسُّقوطِ. أكثرُ ممَّا تُؤَهِّلُ للقيادةِ الراشدةِ، قال الله -تعالى-: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ

يَا عَدْلٍ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وَآيَاتِ كِتَابِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ تَصُكُّ الْأَذَانِ، وَتَقَرُّغُ
الْأَسْمَاعِ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

فهذا هو «واقعُ الفقه» الحاضر، بصورته المعاصرة،
وباشكالياته المتكاثرة، نفهمُ به -ومنه- «فقهَ الواقع»
بحقيقته الناصعة، وملامحه البيّنة الواضحة.

«وهذا الأمر لا يكونُ بالثورات والانقلابات، بل يكونُ
بتعليم المجتمع الخير، والدعوة إلى الخير، وَبِنُصْحِ حُكَّامِ
المُسلمين، وَنُصْحِ جميع المسلمين»^(٢).

(١) «في منهجية الدعوة الإسلامية المعاصرة» (ص ٣٠-٣١).

(٢) «قُرّة العين...» (ص ٣٨) للشيخ مقبل بن هادي الوادعي.

إذ «لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى، ولكن عن طريق تغيير في تصوُّرات المجتمع كله - أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله - وفي قيمه وأخلاقه والتزامه بالإسلام، يجعل تحكيم نظامه وشريعته فريضة لا بد منها في حِسِّهم»^(١).

﴿وَأِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.



(١) «لماذا أعدموني؟» (ص ٤٣)!!

الخاتمة

-نسأل الله حُسْنَهَا-

بعد حَمْدِ الله ذي الجلال؛ أضيفُ شيئاً مهماً ذا صِلَةٍ
أساسيّة بهذه الرسالة، فأقول:

كثيراً ما نَسَمَعُ مِنْ (الدُّعَاةِ) أَوْ (الشُّبَّابِ) مَنْ يَقُولُ
وَيُرَدِّدُ: العلمُ... حُسْنُ الظَّنِّ... التَّائِي... الأخوة...
الخُضُوعُ لِلْحَقِّ... البُعْدُ عَنِ التَّعَصُّبِ... الولاءُ
للمؤمنين... استماع النّصيحة... قبول الدّليل...

...ولكن... وعند أوّل امتحانٍ (فِعْلِيٍّ عَمَلِيٍّ) تُعْرِفُ
به -حقّاً- تِلْكَمُ الْأَقْوَالُ، وَتُقَاسُ بِهِ -صِدْقاً- هَاتِيكَ
الدَّعَاوَى: تَرَى انْقِلَابَ الْمَفَاهِيمِ... وَتَغَيَّرَ الْمَوَازِينَ:

فَالْعِلْمُ يَنْقَلِبُ جَهْلًا...

وَحُسْنُ الظَّنِّ يَنْقَلِبُ تُهْمَةً...

وَالتَّائِي يَنْقَلِبُ تَهَوُّرًا...

وَالْأُخُوَّةُ تَنْقَلِبُ ضِدًّا...

وَالْخُضُوعُ لِلْحَقِّ يَنْقَلِبُ رَفْضًا...

والبُعدُ عَنِ التَّعَصُّبِ يَنْقَلِبُ غُلُوءًا...

والوَلَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَنْقَلِبُ عَدَاءً...

وَاسْتِمَاعُ النَّصِيحَةِ يَنْقَلِبُ إِبَاءً...

وَقَبُولُ الدَّلِيلِ يَنْقَلِبُ تَقْلِيدًا...

... وكيف ذلك! وَقَدْ مَلَأُوا الدُّنْيَا وَشَغَلُوا النَّاسَ!!

... كيف ذلك! وَهُمْ يَدْعُونَ الْحِرْصَ، وَالْإِمْتِنَانَ،

وَاللِّينَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ!!

... سُبْحَانَ اللَّهِ! كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ... مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ

تُذَكَّرُ... وَمِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ يُبَيَّنُّ أَوْ يُشْهَرُ...

وَالنَّاظِرُ فِي (وَأَقْع) الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ - بَلْ مُنْذُ أَلْفِ يَوْمٍ -

يَرَى أَنَّ (الْكَثِيرِينَ) مِنْهُمْ بَعِيدُونَ الْبُعْدَ كُلَّهُ عَنْ ادِّعَاءَاتِهِمْ،

وَمُنْحَرِفُونَ الْإِنْحِرَافَ جَمِيعَهُ عَنْ مَزَاعِمِهِمْ!

فَنَرَى شَابًا - مَثَلًا - أَوْ شَبَابًا، يُنَاقِشُهُمْ (طَالِبُ عِلْمٍ) فِي

مَسْأَلَةٍ (فِكْرِيَّةٍ) أَوْ (دَعْوِيَّةٍ)... فَإِذَا وَافَقَ ذَلِكَ النِّقَاشُ مَا

(لِقَنُوهُ)... وَطَابَقَ مَا (عَايَشُوهُ)... وَجَاءَ مُلَبِّيًا لِرَغَبَاتِ مَا

(أَلْفُوهُ) وَاعْتَادُوهُ: كَانَ عِنْدَهُمْ (مُنَاقِشُهُمْ) الْأَخَ الْمُقَدَّمَ

الْخَالِصَ صَادِقَ الْوُدِّ...

وإن خالفَ قولُكَ مَضمونَ فِكرِهِم، أو نَوَاحِي مِن
رَأْيِهِم... قَذَفوكَ بِزَبَدٍ مِّنَ القَوْلِ السُّوءِ... وَرَمَوْكَ عَن
قَوْسٍ وَاحِدَةٍ بِتُهُمٍ بِهَا العُصْبَةُ أُولُو القُوَّةِ تَنوُّءُ !! ثُمَّ تَرَاهُم
يَتَنَاقَلُونَهَا - مِن غَيْرِ ثَبَتٍ - بِكُلِّ هُدُوءٍ !!

... فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّهِ العَظِيمِ الجَلِيلِ، وَحَسْبِيَ
رَبِّي وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَهُوَ - سُبْحَانَهُ - بِكُلِّ جَمِيلٍ كَفِيلٌ^(١).



(١) الزرقاء: يوم الثلاثاء لثلاثة أيّام بقين من شهر الله المحرم؛ سنة اثنتي
عشرة وأربع مئة وألف للهجرة.

كتبه: أبو الحارث الأثري.

ثم راجعته، وأعدتُ النظر فيه في مجالسَ من غرة شهر رمضان المبارك؛
سنة عشرين بعد الأربعمئة وألف للهجرة.

والله وليُّ التوفيق.

رَفَعَ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفهرس العام

مقدمة الطبعة الثالثة	٥
مدخل	٩
مقدمة الطبعة الأولى	١١
هَدْيٌ مِنَ التَّنْزِيلِ	٢١
(١) ما هو (فقه الواقع)؟	٢٣
(٢) ثوابتُ (فقه الواقع)	٢٩
(٣) سياسةُ (فقه الواقع)	٣٩
(٤) حُكْمُ النَّظَرِ فِي (فقه الواقع)	٤٥
(٥) (فقه الواقع) بين الوَهَمِ والحَقِيقَةِ	٥١
(٦) محاذيرُ غَلَطٍ فَهَمٍ (فقه الواقع)	٥٧
أولاً: التصوُّفُ العصري	٥٧
ثانياً: التقليد بثوبه الجديد	٥٩
ثالثاً: الخلط بين الخطباء والعُلماء	٦١
رابعاً: ربط الناس بغير الأكفيا	٦٣

خامساً: غلبة الجانب السياسي (العصري)	
على الشرع	٦٣
سادساً: استلزام التقليل من أهمية التوحيد والسنة	٦٤
سابعاً: الثقة بوسائل الإعلام الفاسدة	٦٥
ثامناً: عدم التمييز بين الأولويات، والتساهل في	
الشرعيّات	٦٧
تاسعاً: الغلو	٧١
عاشراً: الرضا بالديمقراطية وأساليبها الرديّة	٧٢
(٧) واقع الفقه في (فقه الواقع)	٧٥
أولاً: قاعدة الدعوة إلى الله	٧٥
ثانياً: التآني وعدم العجلة	٧٨
ثالثاً: السبيل	٩٣
رابعاً: الثمرة	٩٥
الخاتمة	١١١
الفهرس العام	١١٥